

أَرِيجُ الأَزْهَارِ النَّضِرَةِ
فِي شَرْحِ القَوَاعِدِ الأَرْبَعَةِ
لشيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب
(١١١٥-١٢٠٦هـ)
شرح الفقير إلى عفو ربه الغني:
أبي زياد محمد بن سعيد البحيري
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمؤمنين

أَرِيجُ الأَزْهَارِ النَّضِرَة

فِي شَرْحِ القَوَاعِدِ الأَرْبَعَة

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥-١٢٠٦هـ)

شرح

أبي زياد محمد بن سعيد البحيري

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عنه- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**». رواه الجماعة.

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». أخرجه أحمد وابن أبي شيبة ومن طريقه أبو داود بإسناد صحيح.

وعرف الجنة: ريحها.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَـدِّمَـةٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي العِزَّةِ والجَبَـرُوتِ، والمُلْكِ والمَلَكُوتِ، الهَادِي عِبَادَه المُؤْمِنِيـنَ إلى الإيمَانِ بِهِ والكُفْرِ بالطَّاغُوتِ، القَائِلِ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وَأَشْهَدُ أَلَّا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَـرِيكَ لَهُ، أَمَرَ عِبَادَهُ بالتوحيد، ونَهَاهُمْ عَنِ الشِّـرْكِ والتَّنْدِيدِ، وأَرْسَلَ إليهم رُسَلَهُ لإخْرَاجِهِمْ من عِبَادَةِ العَبِيدِ إلى عِبَادَةِ رَبِّ العَبِيدِ، وَصَلَّـى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيَّهِ مُحَمَّدٍ المُبَشِّـرِ بالرَّحْـمَةِ، الدَّاعِـي إلى اللهِ بالمَوْعِظَةِ الحسنة والحِكْمَةِ، وعلى آله المُطَهَّرِينَ، وصَحْبِهِ الشَّادِينَ ذَوِي الكِيَاسَةِ والدِّين.

أما بعد

فتوحيد الله هو الغاية التي لها خلق الله الثقلين، ولأجله أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار، ووضع الموازين، فَمَنْ حَقَّقَهُ فهو السعيد الفائز، ومن أتى بضده فهو الشقي الخاسر، كما قال -سبحانه-: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥]، وكل دعوة تقوم على غير التوحيد والاتباع فهي دعوة فاسدة، لا يَنتفع الناسُ بها، ولا تنفع هي الناسَ، بل لم يزدد الناس بها عن ربهم إلا بُعْدا، فإنا قد علمنا من نصوص الكتاب والسنة أن السعادة في الدارين هي في تحقيق توحيد الله -جل وعلا- واتباع نبيه ﷺ، والشقاء في الإشراك به، والإعراض عن سنة نبيه ﷺ، كما قال -سبحانه-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ

﴿أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، وقال -سبحانه-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد:٢٨، ٢٩].

قال أبو العباس ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٥/٢٥):

"وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالِمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ. وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ".

وقد قضى الله -جل وعلا- أن يكون للرسل أعداءٌ يقفون لهم في كل سبيل، ينافحون عن الباطل بشتى السبل المُعْلَنَةِ والخَفِيَّة، يدافعون عن الشرك وأهله، ويحاربون التوحيدَ وأهلَه، هم جنود إبليس الأوفياء، وأعوانه الخبثاء، كما قال -جل شأنه-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان:٣١]، وقال -سبحانه-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

فما دَعَا أحدٌ لمثل ما دَعَا إليه النبيون إلا عُودِيَ، وناله من الأذى بقدر ما عنده من دين، ومن هؤلاء الدعاة المصلحين شيخ الإسلام، ومجدد الدين محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رحمه الله، وجعل الجنة مثواه، فقد ناله نصيب كبير من الأذى، فصبر عليه رحمه الله، وجاهد بجميع أنواع الجهاد؛ جاهد بجسده، ولسانه، وقلمه، وله في الدعوة إلى التوحيد والاتباع مؤلفات عديدة، وتصانيف كثيرة مفيدة، وقد كتب الله له ولمؤلفاته القبول، نحسبه -والله حسيبه- كان مخلصا صادقا، ومن هذه المؤلفات رسالة "**القواعد الأربع**"، ذكر فيها الإمام أربعَ قواعد دلت عليها نصوص الكتاب، يَعْرِفُ بهن الرجلُ شهادةَ أن لا إلٰه إلا الله، ويميز بها بين المسلمين والمشركين، وهي -كما وصفها- عظيمة النفع، انكب العلماء على شرحها، وقد طلب مني بعض الأصدقاء أن أضع عليها شرحا يفي بالمقصود، فأخبرته أن هناك شرحا صوتيا لي على هذه الرسالة، فطمع في تفريغه، فلم أجد بُدًّا من جوابه، وسميته بـ "**أَرِيجِ الأَزْهَارِ النَّضِرَةِ فِي شَرْحِ القَوَاعِدِ الأَرْبَعَةِ**".

فاللهَ أسألُ أن يتقبل مني، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يحسن ختامنا، إنه ولي ذلك ومولاه.

أبو زياد

محمد بن سعيد البحيري

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمؤمنين

متن القواعد الأربع

رسالة القواعد الأربع

حدثني وأخبرني جماعة من الشيوخ بأسانيدهم المذكورة في ثبتي "المنح الوفية في الأسانيد البحيرية" عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- أنه قال:

بسم الله الرحمن الرحيم [1]

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركًا أينما كنت، وأن يجعلك ممن إذا أُعْطِيَ شكر، وإذا ابْتُلِـيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء [2] الثلاث عنوان السعادة.

اِعْلَمْ -أرشدك الله لطاعته- أن الحَنِيفِيَّةَ ملةَ إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها، كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسَمَّى صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة، كما قال -تعالى-: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [التوبة:١٧].

---

[1]- المتن مطبوع ضمن "مؤلفات الشيخ الإمام" (١٩٩/١) مع زيادات زدتها عليه.

[2]- في "الدرر السنية" (٢٠/٣): "**هذه**".

فإذا عَرَفْتَ أن الشركَ إذا خَالَطَ العبادةَ أفسدها وأحبط العملَ وصار صاحبُه من الخالدين في النار عرفتَ: أَنَّ أَهَمَّ ما عليك معرفُة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، " [3] الذي قال الله -تعالى- فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]"، وذلك بمعرفة أربعِ قواعدَ ذكرها الله -تعالى- في كتابه:

القاعدة الأولى:

أن "تعلم" [4] أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّونَ بأن الله -تعالى- هو الخالقُ المُدَبِّـرُ [5]، وأنَّ ذلك لم يُدْخِلْهُمْ في الإسلام، والدليل قوله -تعالى-: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

---

[3] - زيادة من "مؤلفات الشيخ الإمام" (١٩٩/١).

[4] - زيادة من "مؤلفات الشيخ الإمام" (٢٠٠/١).

[5] - في "الدرر" (٣/ص٢١) "هو الخالق، الرازق، المحيي المميت، المدبر لجميع الأمور ولم يدخلهم ذلك في الإسلام".

القاعدة الثانية:

أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة[٦].

فدليل القربة قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزُّمَر:٣].

ودليل الشفاعة قوله -تعالى-: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مُثْبَتة.

فالشفاعة المنفية: ما[٧] كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

---

[٦]- زيادة في "الدرر" "**ونريد من الله لا منهم، لكن بشفاعتهم، والتقرب إلى الله بهم**".

[٧]- في "الدرر" " **هي التي تطلب..** ".

والشفاعة المُثْبَتَةُ: هي التي تُطْلَبُ من الله [٨]، والشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمَشْفُوعُ له مَنْ رَضِيَ اللهُ قولَه وعملَه بعد الإذن؛ كما قال -تعالى-: ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٥٥] [٩].

القاعدة الثالثة:

أن النبي ﷺ ظَهَرَ على أناس متفرقين في عبادتهم، منهم مَنْ يَعْبُدُ الملائكةَ [١٠]، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأنبياءَ والصالحين، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأشجارَ والأحجارَ، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الشمسَ والقمرَ، وقاتلهم رسولُ الله ﷺ ولم يُفَرِّقْ بينهم، والدليل قوله -تعالى-: ﴿**وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال:٣٩].

فدليل الشمس والقمر قوله -تعالى-: ﴿**وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فُصِّلَت:٣٧].

---

[٨]- زيادة في "الدرر" "**فيما لا يقدر عليه إلا الله**".

[٩]- في "الدرر" " والدليل قوله -تعالى-: (**الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... إلخ**"

[١٠] - في "الدرر " قَدَّمَ الشمسَ والقمر على الملائكة، فقال: "**منهم من يعبد الشمس والقمر؛ ومنهم من يعبد الملائكة..**"

ودليل الملائكة [11] قوله -تعالى-: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران:٨٠].

ودليل الأنبياء قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦]. [12]

ودليل الصالحين قوله -تعالى-: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء:٥٧]. [13]

ودليل الأشجار والأحجار قوله -تعالى-: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم]، وحديث أبي واقد الليثي -رضي الله عنه- قال:

---

[11]- في "الدرر" قال: " ودليل الملائكة، قوله -تعالى-: **(ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)** [سبأ: ٤٠ - ٤١].

[12] - في "الدرر" وقف إلى قوله -تعالى-: **(فقد علمته)** ثم ذكر بعدها قوله -تعالى-: **(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا)**.

[13]- قال في "الدرر" ودليل الصالحين قوله -تعالى-: **(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا)** [الإسراء: ٥٦].

«خرجنا مع النبي ﷺ إلي حُنَيْنٍ ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها وينوطون بها أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ... الحديث». [14]

القاعدة الرابعة:

أنَّ مشركي زماننا أغلظُ شِرْكًا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائمًا [15] في الرخاء والشدة، والدليل قوله -تعالى-: ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** ﴾ [العنكبوت:٦٥]. [16]

والله سبحانه أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم [17].

---

[14]- في "الدرر" أكمل الحديث.

[15]- قال في "الدرر": "**لأن الأولين يخلصون لله في الشدة، ويشركون في الرخاء؛ ومشركي زماننا: شركهم دائم، في الرخاء والشدة**".

[16] - زاد في "الدرر" "فعلى هذا: الداعي عابد؛ والدليل قوله تعالى: **(ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون)** [الأحقاف: ٥] والله سبحانه أعلم، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

[17] - للشيخ خمس رسائل تُسمى بالقواعد الأربع كلها مطبوع في "**الدرر السنية**"، وهي ما بين مطولة ومختصرة ومتوسطة، فالأولى المطولة (٥/٢) قال في مطلعها: "**أربعة قواعد يتميز بها المسلم من المشرك.... إلى أن قال: أما بعد: فقد طلب مني بعض الأصدقاء الذين لا تنبغي مخالفتهم، أن أجمع مؤلفا يشتمل على مسائل أربع**".
والثانية هي المتوسطة، وهي التي عليها أكثر الشروحات، وهي التي قمت بشرحها في هذا الكتاب.

مبادئ علم الاعتقاد

قال مقيده -عفا الله عنه-:

إنَّ الْمَبَادِي فَاعْرِفَنَّ عَشَــرَهْ ... حَدًّا وَمَوْضُوعًا خُذَنْ فثَمَرَهْ

حُكْمٌ مَسَائِلٌ وَوَضْعٌ اسْتُمِدّْ ... اِسْمٌ وَنِسْبَةٌ وَفَضْلًا اعْتَمِدْ

أولا : حده.

الاعتقاد لغة: مصدر «**اعتقد يعتقد اعتقادا**» من اعْتَقَدَ القلبُ إذا صَلُبَ، ويتعدى إلى مفعوله فيقال: اعتقد الشيءَ: إذا اقتناه واتخذه وأحكم قلبَه عليه، وهو مما يدل فيه افتعل على الاتخاذ، **ومَرَدُّ العَقْدِ**: إلى الشَّدِّ والرَّبْطِ، من «**عَقَدَ يَعْقِدُ عَقْدًا**»، وربما جاء اعْتَقَدَهُ كـ عَقَدَهُ؛ **كما قال جرير**:

أَسِيلَةُ مَعْقِدِ السِّمْطَيْــنِ مِنْهَا *** وَرَيَّا حَيْثُ تَعْتَقِدُ الحِقَابَا

وشرعا: الإيمان بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، والْقَدَرِ خَيْــرِهِ وَشَــرِّهِ.

ثانيا : موضوع علم الاعتقاد.

الإسلام والإيمان والإحسان وما يتبع ذلك.

والثالثة مختصرة قال في مطلعها (٢٧/٢): " أما بعد: **فهذه أربع قواعد ذكرها الله في محكم كتابه، يعرف بها الرجل شهادة أن لا إله إلا الله، ويميز بها بين المسلمين والمشركين؛ فتدبرها، يرحمك الله؛ وأصغ إليها فهمك؛ فإنها عظيمة النفع**".

والرابعة مختصرة أيضا في مطلعها (٣١/٢): " **الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد المرسلين، وإمام المتقين؛ سألت" رحمك الله" أن أكتب لك كلاما، ينفعك الله به..... إلى أن قال: " فإذا عرفت هذا، فعليك" رحمك الله" بمعرفة أربع قواعد.....**".

والخامسة قال في مطلعها (٣٣/٢): " **هذه أربع قواعد من قواعد الدين؛ يميز بهن المسلم بين مذهب المسلمين من مذهب المشركين**".

ثالثا: ثمرته.

مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبتحقيق التوحيد والاتباع يسعد العبد في الدارين، وينجو من أهوال يوم القيامة.

رابعا: نسبته.

أصل العلوم الشرعية، ونسبته إلى غيره من العلوم التباين.

خامسا: فضله.

لعلم الاعتقاد مباحث متعددة، وعلى رأسها توحيد الرب جل وعلا، وهو موضوع هذه الرسالة، فمن فضائل علم التوحيد:

الأول: أنه أشرف العلوم؛ لقوله -تعالى-: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، وشرف العلم من شرف المعلوم.

الثاني: أن التوحيد هو الغاية التي من أجلها خلق الله الجن والإنس؛ لقوله -تعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

الثالث: أنه أول فرض على العبيد، فأول فرض على العبد أن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، كما قال -تعالى-: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٥]، وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، ويدل على ذلك حديث معاذ

حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وفيه أنه قال له: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ........ الحديث**" متفق عليه واللفظ للبخاري.

ولهما في رواية أخرى قال ﷺ: "**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**".

الرابع: أنه ما من نبي إلا وأُرسل بالتوحيد، لقوله -تعالى-: ﴿**يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ**﴾ [النحل:٢]، وقوله -تعالى-: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء:٢٥].

الخامس: أنَّ مَنْ حقق التوحيد دخل الجنة؛ لقوله -تعالى- ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢]، ولقول النبي ﷺ: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**». متفق عليه.

السادس: أنَّ مَنْ حقق التوحيد قُبِلَتْ منه عبادتُه، لقوله -تعالى-: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾ [الزُّمَر:٦٥].

سادسا : واضعه.

أول من وضع فيه كتابا مستقلا -فيما أعلم- هو أبو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بنُ سَلَّامٍ في كتاب سماه "**الإيمان**"، أما كتابُ الفقه الأكبر المنسوبُ لأبي حنيفة فمكذوب عليه، غير أنَّ فيه مباحث مخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة كالإرجاء، وبعض مباحث الصفات، وغير ذلك.

سابعا : اسمه.

علم الاعتقاد، وعلم التوحيد، وعلم الشريعة، وعلم الإيمان، وعلم العقيدة، والسنة، وأصول الدين، والفقه الأكبر، وعلم العقائد.

ويسمى عند المبتدعة من الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية، والجهمية، والكلابية "بعلم الكلام"، وربما سماه بعضهم "بالفلسفة" أو "أصول الدين" أو "علم العقائد".

ثامنا : استمداده.

من الكتاب والسنة.

تاسعا : حكم تعلمه.

فرضُ عين على كل فرد من الثقلين الجن والإنس.

مسائله:

منها: «**معرفة التوحيد، وما يضاده من الشرك، ومعرفة الإسلام، والإيمان وشعبه، وأقسامه**» إلى غير ذلك مما سيأتيك.

شرح

مقدمة الشيخ

شرح مقدمة الشيخ

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-:

بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركًا أينما كنت، وأن يجعلك ممن إذا أُعْطِيَ شكر، وإذا ابْتُلِـيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.

اِعْلَمْ -أرشدك الله لطاعته- أن الحَنِيفِيَّةَ ملةَ إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها، كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسَمَّى صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة، كما قال -تعالى-: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [التوبة:١٧].

فإذا عَرَفْتَ أن الشركَ إذا خَالَطَ العبادةَ أفسدها وأحبط العملَ وصار صاحبُه من الخالدين في النار عرفتَ: أَنَّ أَهَمَّ ما عليك معرفةُ ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، " الذي قال الله -تعالى- فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]"، وذلك بمعرفة أربعِ قواعدَ ذكرها الله -تعالى- في كتابه.

الشرح

قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»

بدأ -رحمه الله- بالبَسْمَلَةِ لعدة أمور:

أولا: أسوةً بكتاب الله جل وعلا.

ثانيا: أسوةً بسنة النبي ﷺ القولية؛ إذ أخرج مسلم (ح٤٧٣٢)، وأحمد (ح١٣٨٢٧)، وغيرهما عَنْ أَنَسٍ أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: «**اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... الحديث**».

ثالثا: أسوةً بسنة النبي ﷺ الفعلية؛ حيث كان النبي ﷺ يفتتح رسائله بالبسملة كما عند البخاري (١/١٢) من حديث هِرَقْلَ.

رابعا: هي من سنن الأنبياء؛ كما قال سليمان -عليه السلام-: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠].

خامسا: للاستعانة بالله -جل وعلا-، وذلك على القول بأن الباء للاستعانة.

فالمَعْنَى: بسم الله الرحمن الرحيم أَكْتُبُ، فقدرنا المُتَعَلَّقَ فِعْلًا مُتَأَخِّرًا مُنَاسِبًا للمَقَامِ، وتقدير المُتَعَلَّقِ محذوفا في هذا المقام واجب، وهو عند البيانيين من مجاز الحذف.

فكونه فِعْلًا فلأن الأصل في العمل يكون للأفعال، على خلاف بينهم في تقديره ليس هذا مَحَلُّ بَسْطِهِ، وقد بسطت القول فيه في شرحي على "**قواعد الإعراب**"، وكونُنا قدرناه متأخرا حتى يكون البدء باسم الله، وهذا يفيد الحصر والاهتمام، ولو قدرناه متقدِّما لجاز أيضا، لكنَّ الأول أبلغ؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والحصر: إِثْبَاتُ الحكم في المذكور ونَفْيُهُ عما عداه، **فإذا قلت**: «**بسم الله أكتبُ**» **أي**: بسم الله لا باسم غيره، ففيه حصر الاستعانة بالله وحده، ونفي ذلك عن غير الله، **واسم**: مفرد مضاف إلى أعرف المعارف وهو اسم الجلالة فعم جميع الأسماء، **فصار المعنى**: بكل اسم لله أستعين على الكتابة لا باسم غيره.

والاهتمام: أن يتقدم اسم الجلالة على غيره، فلا يتقدم عليه شيء؛ وذلك مراعاة للاستعانة به سبحانه، وهو المناسب في هذا الموضع.

وقد يتقدم المُتَعَلَّقُ في بعض المواضع؛ وذلك لمراعاة معنى آخر، كما في قوله -تعالى- ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، ففي هذا الموضع تَقَدَّمَ المُتَعَلَّقُ لمراعاة جانب القراءة، وهو المُهِمُّ في هذا الموضع، **كما قال السيوطي في** "**عُقُودِ الجُمَانِ**":

وقد يُفيد في الجميع الاهْتِمَامْ *** به ومِنْ ثَمَّ الصَّوَابُ في المَقَامْ

تقديرُ ما عُلِّقَ باسم اللهِ بِهْ *** مُؤَخَّرًا فإن يَرِدْ بِسَبَبِهْ

تقديمُه في سورة اقرأ فهُنا *** كان القراءةُ الأهمَّ المُعْتَنَى

وقدرناه مناسبا للمقام حتى إذا قدمتَه للقراءة يكون التقدير: «**باسم الله أقرأ**»، وإذا قدمتَه للأكل يكون التقدير: «**باسم الله آكل**»، ولو قدرناه عَامًّا لَمَا أفاد هذه الفائدة، مثلا لو قدرناه «**أَبْدَأُ**» لَمَا عُلِمَ بأي شيء تَبْدَأُ.

ومن البلاغة في البسملة أيضا الإِيجَازُ بإضافة العام للخاص في قوله -تعالى-: ﴿**بسم الله**﴾ ويُسَمَّى عند البيانيين «**إِيجَازَ قَصْرٍ**».

والاسم: عند البصريين مشتق من «**السُّمُوِّ**»، وهو «**العُلُوُّ**»، من «**سَمَا الشيءَ يَسْمُوه سُمُوًّا**»، وأصله «**سِمْوٌ**»، حُذِفَ حرف العلة الواو المتطرفة فنُقل الإعراب على الميم قبلها بحيث نزلت منزلة الواو فصارت محل الإعراب، ثم دخلت عليه همزة الوصل في أوله، ودليل ذلك شيئان:

الأول: أن فيه لغة "**سِمٌ**".

الثاني: تصريفه؛ إذ يُجمع على «**أَسْمَاءٍ**» الذي هو في الأصل «**أسْمَاو**» فهو وَاوِيٌّ مُعْتَلٌّ، وعلى «**أَسَامِو**»، التي أصبحت بعد القلب «**أَسَامِيَ**»، ويُصغر على «**سُمَــيٍّ**».

أما حذف همزة الوصل من "**بِاسْمِ**" في البسملة فلعدم ذكر المُتَعَلَّقِ.

واسم الجلالة «**اللَّهُ**» مشتقٌّ، ومعنى كونه مشتقا أنه دَالٌّ على صفة الإلهية له -سبحانه وتعالى- خلافا لمن زعم أنه جامد، وأصل اشتقاقه «**إِلَاهٌ**» على وزن «**فِعَالٍ**»، فحُذفت الهمزة وعُوض عنها بأل، وهو ما نَقله سِيبَوَيْهِ عَنِ الْخَلِيلِ، وقيل: أصله "**لَاه**" ثم دخلت عليه الهمزة، **وقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ**: أَصْلُهُ «**الْإِلَاهُ**»، حَذَفُوا الْهَمْزَةَ وَأَدْغَمُوا اللَّامَ الْأُولَى فِي الثَّانِيَةِ فصارتا لاما مشدَّدة.

والدليل على كونه مُشْتَقًّا قوله -تعالى-: ﴿**وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ**﴾ [الأنعام:٣]، فلما ورد في قوله -تعالى-: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ**﴾ [الزُّخْرُف: ٨٤] علمنا أنه مشتق، لِتَعَلُّقِ الجار والمجرور به، **قال رُؤْبَةُ**:

لِلَّهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ *** سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

والإِلَهُ: هو الذي تَأْلَهُهُ القلوب وتحبُّه، وهو "**فِعَالٌ**" بمعنى "**مفعول**"، أي: "**مَأْلُوهٌ**" بمعنى: "**معبود**"، من «**أَلَهَ، يَأْلَهُ إلاهَةً، وأُلُوهَةً، وألُوهِيَّةً**»، وسُمِعَ «أَلِهَ» بالكسر بمعنى تَحَيَّـرَ، وليس هو من هذا الباب؛ لأن الهمزة فيه منقلبة عن واو.

ومَرَدُّ هذه المادة إلى التَّعَبُّدِ، كما قال ابن فارس، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ -جل جلاله-، **وَيُقَالُ**: تَأَلَّهَ الرَّجُلُ: إِذَا تَعَبَّدَ.

وقد اشتمل اسم الجلالة على أنواع التوحيد الثلاثة، **فالإله**: هو المعبود، وهذا يستلزم كونَه رَبًّا خالقا رازقا مدبرا مُحْيِيًا مميتا، وهو كذلك يجمع جميعَ معاني الأسماء والصفات، ولذلك تُضاف إليه جميع الأسماء ولا يُضاف هو إليها.

الرحمانِ الرحيمِ: اسمان من أسماء الله الحسنى، وهما نعتان لاسم الجلالة "**الله**"، ولك في إعرابهما تسعة أوجه من رفع ونصب وجر، إلا أنك إن نصبتَ الرحمان أو رفعتَه لم يجز لك أن تجر الرحيم، **كما قال النور الأجهوري**:

إِنْ يُنْصَبِ الرَّحْمَنُ أَوْ يَرْتَفِعَا *** فَالْجَرُّ فِي الرَّحِيمِ قَطْعًا مُنِعَا

وفي إعراب البسملة أوجه كثيرة، أوصلها بعض النحاة كالخضري في "حاشيته على شرح ابن عقيل" إلى "**تسعة وسبعين وجها بعد المئتين !!**"، ولا يُسَلَّمُ له في بعضها كما بينته في "حاشيتي على شرح ابن عقيل".

والرَّحْمَان: على وزن "**فَعْلَانَ**"، وهي من صِيغ المبالغة، كَعَطْشَانَ وغَرْثَانَ.

والرَّحِيمُ: على وزن "**فَعِيلٍ**"، من الدلالة على المبالغة أيضا.

فكل من الرحمان والرحيم للمبالغة، لكنَّ لفظ "**رحمان**" أبلغ من لفظ "**رحيم**"، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبا؛ فالرحمن يَعُمُّ برحمته جميع خلقه، أما الرحيم فرحمته خاصة بالمؤمنين؛ ولذلك قال -تعالى-: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

قال ابن كثير في "تفسيره" (١/٣٣):
"وَرَحْمَنُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنْ رَحِيمٍ، وفي كلام ابن جرير ما يُفهم منه حِكَايَةُ الِاتِّفَاقِ عَلَى هَذَا، وَفِي تَفْسِيرِ بَعْضِ السَّلَفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ".

ومن الفرق بينهما أن "**الرحمان**" لا يُطلق إلا عَلَى الله، أما "**الرحيم**" فقد يُطلق على غير الله، كما قال الله عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ولابن القيم -رحمه الله- توجيه جيد؛ إذ قال في "بدائع الفوائد" (١/٢٨):
"وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل.

فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردْتَّ فهم هذا فتأمل قوله: ﴿**وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا**﴾، ﴿**إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ**﴾، ولم يَجِئْ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نُكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تَنَفَّسَتْ عندها مِرآة قلبك لم تنجل لك صورتها".

وكل الرحمان والرحيم مشتق من الرحمة، **والرَّحْمَةُ في اللغة**: «**الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ**».

وهي مفرد «**رَحَمَاتٍ**» بتحريك الثلاث، «**ورَحْـمَـاتٍ**» أيضا بإسكان الحاء، مِن «**رَحِمَ، يَرْحَمُ، رَحْـمَةً وَرُحْـمًـا، فهو رَاحِمٌ، ومَرْحُومٌ**».

والرَّحْمَةُ: صفةُ كمالٍ تَليق بالله-جل جلاله-، وتفسيرُ الرحمةِ بإرادة المغفرة، أو الثواب، أو الإنعام، والإكرام، أو النعمة كما تقول الأشاعرة تحريفٌ لصفة الرحمة عن معناها، فأهل السنة والجمـاعة يُثبتون لله-جل وعلا-صفة الرحمة على الوجه اللائق بالله-جل جلاله-، ولا يحرفون الصفات عن معناها، فالله-جل وعلا-له رحمة يرحم بها، وهو رحيم، ورحمان، ورحمته وَسِعَتْ كلَّ شيء، ليست كرحمة المخلوقين؛ لأنَّ الله-جل جلاله-ليس كمثله شيء، وأهل السنة والجماعة يثبتون أيضا آثارَ تلك الرحمة، **فيقولون**: إرادة الإحسان والإحسان والإنعام من آثار تلك الرحمة، **كما يقولون**: هي رحمة من الله لمن يستحقها، كما قال -تعالى-: ﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ** ﴾ [العنكبوت:٢١].

وقوله : «أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة

افتتح الشيخ رسالته بدعاء كما هي عادته، وهو دعاء من الشيخ لطلاب العلم ولكل من قرأ رسالته بأن يتولاهم الله في الدارين، وهو مما يدل على رقة قلبه وحبه للمسلمين عامة، ولطلاب العلم خاصة، وأنه يحب لغيره ما يحب لنفسه من الهداية والنجاة، فينبغي للدعاة إلى الله أن يكونوا رحماء بالناس، وليكن لهم في رسول الله أسوةٌ حسنة، فقد كان النبي ﷺ رحيما بهم؛ إذ قال الله عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، بل ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين، كما قال -سبحانه-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والسؤال في اللغة له معان: منها: "**الطلب، والدعاء**"، وهو في كلام الشيخ يحتمل المعنيين، **يقال**: "**سأله**" أي: طلب منه، وسأله: "**دعاه**"، ومنه حديث: " **كَانَ إِذَا سَأَلَ جَعَلَ بَاطِنَ كَفَّيْهِ إِلَيْهِ**" أي: دعا، أخرجه أحمد بإسناد ضعيف.

والتوسل المشروع إلى الله -جل وعلا- أن يكون بأسمائه، أو صفاته، أو بعمل صالح، أو بدعاء رجل صالح حي قادر، وقد توسل المؤلف إلى الله باسمه الكريم، وبأنه -جل وعلا- ربُّ العرشِ الموصوفِ بصفة العظمة.

والكَرِيمُ: اسم من أسماء الله متضمنٌ صفةَ الكرم، والله -جل وعلا- لم يزل كريما، فالكرم صفة ذات بمعنى وصفه -سبحانه- بجميع المحامد، ونفي النقائص،

وصفةُ فعل باعتبار ما يصل إلى الخلق من كرمه، كما قال -سبحانه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، وهو «**كثير الخير الجَوَادُ المُعطِي بغير طلب**»، فهو كريم -سبحانه- على عباده وإن لم يطلبوا منه، **وكَرِيمٌ**: على وزن «**فَعِيلٍ**»، صفة مُشَبَّهَةٌ تَدُلُ على الثبوت من «**كَرُمَ، يَكْرُمُ، كَرَمًا وكَرَامَةً، فهو كَرِيمٌ**».

والرَّبُّ: هو المُرَبِّـي المُتَصَرِّفُ المَالك المُصْلِحُ للشيء، **والرب**: اسم من أسماء الله -جل وعلا-، كما قال النبي ﷺ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ**»، ولا يقال إلا لله -جل وعلا- إذا قُطِعَ عن الإضافة.

والعرش لغة كما قال الخليل: سَرِيرُ المَلِكِ، كما قال -تعالى- عن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، وعن سبإ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ومرد مادة "عرش" في اللغة إلى الارتفاع، ولذلك سمي العرش عرشا لارتفاعه.

وعرش الرب -جل وعلا- ذو قوائم كما قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ**» أخرجه البخاري، وقد خصه الله بالاستواء عليه، كما قال -سبحانه-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. **أي**: علا عليه، ولذلك تَعَدَّى الفعلُ استوى بـ (على)، وقد قدَّم الجار والمجرور عليه لإفادة الحصر والقصر، **أي**: استوى على العرش لا على غيره، فعُلُوُّ الله -جل وعلا- على عرشه لا يشبه عُلُوَّ المخلوقين، فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وقد وردت صفة الاستواء في سبع آيات يحرفها عن معناها أهلُ البدع والأهواء من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ، أما أهل السنة والجماعة فيثبتون لله -جل وعلا- ما أثبته لنفسه، دون تحريف، أو تعطيل، أو تمثيل، أو تكييف.

وقد وصف الله -جل وعلا- عرشَهُ بأوصاف كثيرة، منها أنه عظيم، فهو أعظم مخلوقات الله، ولذلك وصفه الله بأنه عظيم في ثلاث آيات، كما قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦]، وقال -تعالى-: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وقال -تعالى-: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦].

وقوله : «أن يتولاك».

أي: أسأل ألا يكلك إلى نفسك، وأن يكون محبا ونصيرا ومعينا لك في الدنيا والآخرة، ومن كان الله مُتَوَلِّيَه أحبه وأعانه وسدده وهداه إلى التوحيد والاتباع، وأخرجه من الظلمات إلى النور، كما قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

فالولي هو من تولاه الله -سبحانه- وسدده ووفقه إلى الإيمان والتقوى، فالله -جل وعلا- مولى الذين آمنوا، يتولى أمورهم ويوفقهم لما فيه رضاه من الإيمان والتقوى، وأما الكافرون فلا مولى لهم يهديهم ويرشدهم، كما قال -سبحانه-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد:١١]، ومن لم يكن الله مُتَوَلِّيَه فإن الشيطان مُتَوَلِّيه، يخرجه من النور إلى الظلمات، كما قال -تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ [الحج].

أي: كُتِبَ على الشيطان أنه يُضل أتباعَه المُتَوَلِّيـنَ له، ولا يهديهم إلى الحق، بل يهديهم إلى عذاب السعير ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

والتولي: مصدر «**تَوَلَّى يَتَوَلَّى تَوَلِّيًا**» من باب «**تَفَعَّلَ**» وكان الأصل في مصدره «**تَوَلُّيًا**» بضم اللام، لكنَّ ثلاثيه فعل ناقص، فأبدلت الضمة كسرة؛ لأنه لا يوجد في كلام العرب اسمٌ آخرُهُ واوٌ أو ياءٌ لازمةٌ قبلها ضمة.

فتولي الله خاص بعباده المؤمنين، لا يكون إلا لهم، كما سبق بيانه.

أما ولاية الله فهي نوعان: "**عامة، وخاصة**".

فالعامة بمعنى التدبير والتصرف، وتكون للمؤمن والكافر، الطائع والعاصي، كما قال -سبحانه-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الشورى:٢٨].

قال ابن كثير "في تفسيره" (٧/٢٠٧):

"{وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله".

وقال ابن السِّعْدِيِّ في "تفسيره" (ص٧٥٨):

"{وَهُوَ الْوَلِيُّ} الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. {الْحَمِيدُ} في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال".

والخاصة تكون بمعنى التأييد والسداد والإعانة والهداية، ولا تكون إلا للمؤمنين؛ كما قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

ولأنه الولي -سبحانه- فلا وليَّ غيرُه، ولا معينَ ولا ناصرَ غيرُه، قال -سبحانه-: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]. فهو -سبحانه- لا يتولى أحدًا من خلقه لاحتياجه إليه، أو لمعاونته له، فهو الغني الحميد جل جلاله، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، بل جميع خلقه محتاجون إليه، ولكنه -سبحانه- يتخذ أولياء إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم.

والدنيا: على وزن «**فُعْلَـى**» مؤنث «**أَدْنَـى**»، وسُمِّيت "**دُنْيا**" لدنوها وخستها وحقارتها، كما قال -جل علا-: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١].

قال الطبري:

"وَمَعْنَى قَوْلِهِ: {أَدْنَى} أَخَسُّ وَأَوْضَعُ وَأَصْغَرُ قَدْرًا وَخَطَرًا، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: هَذَا رَجُلٌ دَنِيٌّ بَيِّنُ الدَّنَاءَةِ".

وقيل: سميت "دنيا" لدُنُوِّها وقربها لنا عن الآخرة، وكذلك السماءُ الدُّنْيا هي القربى إلينا، وسميت الدنيا.

والآخرة: هي الحياة التي ليس بعدها حياة، قال -تعالى-: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال -تعالى-: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، فإما نعيم أبدي لأهل التوحيد، وإما شقاء أبدي لأهل الشرك.

أما أهل التوحيد فلا خوف عليهم؛ لأنه الله -جل شأنه- يتولاهم في الدنيا وفي الآخرة، فيتولاهم في الدنيا بهدايتهم إلى التوحيد والاتباع، وتوفيقهم ونصرتهم على أعدائهم، وفي الآخرة يبشرهم برحمته ورضوانه، ويهديهم إلى جنات النعيم، ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤].

فلهم البشرى عند موتهم بما يرون من ملائكة الرحمة، وما ينتظرهم من النعيم المقيم، وفي القبر بما يأتيهم من نعيم الجنة، ورؤية مقعدهم، وعند البعث يؤمنهم أمنا تاما إلى أن يهديهم إلى دار النعيم، كما قال -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [فُصِّلَت:٣٠،٣١]. جعلني الله وإياكم منهم.

وقوله: وأن يجعلك مباركًا أينما كنت

أي: وأسأل الله -جل وعلا- أن يُصَيِّـرَك مُبَارَكًا أينما كنت....، **والمُبَارَكُ**: النَّفَّاعُ، كثير الخير والنفعِ للآخرين، وقول الشيخ مقتبس من قول عيسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

وقوله: وأن يجعلك ممن إذا أُعْطِيَ شكر، وإذا ابْتُلِيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة

أي: وأسأل الله أن يجعلك ممن إذا أعطي -عطاءً لا شك أنه واقع- شكر.....

والعطاء: اسم لِمَا يُعْطَى، سواء أكان في الخير أم في الشر، وهو هنا مختص بالخير، مما يُعْطِيه الله لعبده من نعم ظاهرة وباطنة، وبما يقرب إليه -سبحانه-.

وعَطَاءٌ: أَصله "**عَطَاو**" بالواو لأَنه من "**عَطَوْتُ أَعْطُو**" لكنَّ العرب تقلب الواوَ همزةً إذا وقعت الواوُ متطرفةً عقب ألف زائدة، أما عند التثنية وإلحاق الهاء به فمن العرب من يبقيه على أصله، ومنهم من يهمزه، فيقولون: "**عَطَاءَةٌ، وعَطَاوَةٌ، وعَطَاءَانِ، وعَطَاوَانِ**".

والشُّكْرُ في اللغة: مصدر "**شَكَرَهُ يَشْكُرُهُ شُكْرًا**"، **وله معان**، منها: "**الثناء، وعِرْفانُ الإحْسان ونَشْرُه، والرِّضَا بِالْيَسِيرِ**".

قال ابن فارس: "**يَقُولُونَ**: فَرَسٌ شَكُورٌ، إِذَا كَفَاهُ لِسِمَنِهِ الْعَلَفُ الْقَلِيلُ. **وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ الْأَعْشَى**:

وَلَا بُدَّ مِنْ غَزْوَةٍ فِي الْمَصِي *** فِ رَهْبٍ تُكِلُّ الْوَقَاحَ الشَّكُورَا

والشَّكَرُ بفتح الشين: السِّمَنِ، وهو مصدر "**شَكِرَ يَشْكَرُ شَكَرًا**"، هو كـ "**فَرِحَ يَفْرَحُ فَرَحًا**"، يقال: شَكِرَتِ الناقَةُ إذا امْتَلأَ ضَرْعُها، وسَمِنَتْ، وظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُ الْعَلَفِ.

وشرعا: الِاعْتِرَافُ بِنِعْمَةِ الْمُنْعِمِ عَلَى وَجْهِ الْخُضُوعِ، **وَقِيلَ**: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ. حكاهما ابن القيم.

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/٢٣٥):

"وَكَذَلِكَ حَقِيقَتُهُ -أي: الشكر- فِي الْعُبُودِيَّةِ. وَهُوَ ظُهُورُ أَثَرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ: ثَنَاءً وَاعْتِرَافًا. وَعَلَى قَلْبِهِ: شُهُودًا وَمَحَبَّةً. وَعَلَى جَوَارِحِهِ: انْقِيَادًا وَطَاعَةً.

وَالشُّكْرُ مَبْنِيٌّ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدَ: خُضُوعُ الشَّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ. وَحُبُّهُ لَهُ. وَاعْتِرَافُهُ بِنِعْمَتِهِ. وَثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ بِهَا. وَأَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَكْرَهُ، فَهَذِهِ الْخَمْسُ: هِيَ أَسَاسُ الشُّكْرِ. وَبِنَاؤُهُ عَلَيْهَا. فَمَتَى عُدِمَ مِنْهَا وَاحِدَةٌ: اخْتَلَّ مِنْ قَوَاعِدِ الشُّكْرِ قَاعِدَةٌ".

والشكر يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح.

قال ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (١/١٧٤):

"وَالشُّكْر للنعم مَبْنِيٌّ على ثَلَاثَة أركان: الإقرار بِالنعْمَةِ وإضافتها الى الْمُنعم بهَا وصرفها فِي مرضاته وَالْعَمَل فِيهَا بِمَا يجب فَلَا يكون العَبْد شَاكِرًا إِلَّا بِهَذِهِ الاشياء الثَّلَاثَة".

فالشكر بالقلب

أن يقر باطنا يقينا وصدقا أن ما به من نعم إنما هو من الله وحده لا شريك له، فليست هي بحولك وقوتك، ولا بحول غيرك وقوته، بل هذه النعم من الله وحده، يلزم كلَّ موحد أن يقر بذلك باطنا، كما قال -تعالى-: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ** ﴾ [النحل:٥٣].

وأخرج مسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا**» فهؤلاء لم يشكروا بقلوبهم، لم يعتقدوا أن ما نزل بهم من نعمة المطر هو من الله.

والشكر باللسان

أن يتحدث بنعمة الله عليه، ويثني عليه -سبحانه- أنه منه وحده، كما قال -تعالى-: ﴿ **لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ** ﴾ [الزُّخرُف:١٣]، وقال -تعالى-: ﴿**وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ**﴾ [الضُّحى:١١].

وفي حديث الأعمى والأبرص والأقرع قال الأعمى: " **قد كنت أعمى فرد الله عليَّ بصري**".

والشكر بالعمل

أن يسخر هذه النعمة في الوجه الذي يرضي الله جل وعلا، فلا يستخدمها إلا في طاعته، كما قال -تعالى-: ﴿اعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ [سبأ:١٣].

أي: اعملوا آل داود شكرا لله على ما مَنَّ به عليكم من نعم؛ **لذا قال الشاعر**:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ منِّي ثَلَاثَةً *** يَدِي ولِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

أي: أَفَادَكُم إِنْعَامُكُمْ عَلَيَّ ثلاثةَ أشياء: مكافأةَ ذلك باليد، ونشرَ المحامد باللسان وحبَّ القلب لكم.

أما الحمد فهو ذكر محاسن المحمود باللسان مع حبه وإجلاله وتعظيمه، سواء كان الحمد على نعمة، أو لا، فالله -جل وعلا- يُحمد على نعمه، ويُحمد على أفعاله وصفاته، سواء أكانت واصلة إلى المخلوق أم لا.

فالعلاقة بين الشكر والحمد هي العموم والخصوص الوجهي:

فيجتمعان في الثناء باللسان على النعم والإفضال، وينفرد الشكر عن الحمد في الثناء بالقلب والجوارح على النعمة، وينفرد الحمد عن الشكر في الثناء باللسان على ما ليس بنعمة، فالشكر أعم آلة وأخص متعلقا، والحمد عكسه؛ أعم متعلقا وأخص آلة.

ومن أسماء الله: الشاكر، والشكور.

قال -تعالى-: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧]، وقال -سبحانه-: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤]، وقال: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨]، وقال -تعالى-: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧].

فالشاكر: الذي يجزي عبادَهُ على أعمالهم وإن قصروا فيها.

والشكور: الذي يضاعف ذلك، ويكثِّره لعباده.

قال ابن السعدي في "تفسير أسماء الله الحسنى" (ص٥٧):

"وهو الذي يشكر القليلَ من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملا، بل يضاعفه أضعافا مضاعفة بغير عدٍّ ولا حساب، ومن شُكْرِهِ أنه يجزي بالحسنة عشرةَ أمثالِها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد يجزئ الله العبد على العمل بأنواع من الثواب العاجل قبل الآجل، وليس عليه حق واجب بمقتضى أعمال العباد، وإنما هو الذي أوجب الحق على نفسه كرمًا منه وجودًا، والله لا يضيع أجر العاملين به إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوها لله تعالى.

فإذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته أعانه على ذلك، وأثنى عليه، ومدحه، وجازاه في قلبه نورا وإيمانا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يَقْدُمُ على الثواب الآجل عند ربه كاملا موفورا، لم تُنقصه هذه الأمور. ومِنْ شُكْرِهِ لعبده، أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه".

وكل من الشاكر والشكور متضمن لصفة الشكر.

أخرج الشيخان عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِى كَانَ بَلَغَ مِنِّى. فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا فَقَالَ «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**».

وقد وصف الله أنبيائه بأنهم كثيـرو الشكر، كما قال عن نوح: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا**﴾ [الإسراء:٣]، وقد قال النبي ﷺ عن نفسه: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» متفق عليه.

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/١٥٧):

"وَمَقَامُ الشُّكْرِ جَامِعٌ لِجَمِيعِ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَرْفَعَهَا وَأَعْلَاهَا، وَهُوَ فَوْقَ الرِّضَا وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الصَّبْرَ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، وَيَتَضَمَّنُ التَّوَكُّلَ وَالْإِنَابَةَ وَالْحُبَّ وَالْإِخْبَاتَ وَالْخُشُوعَ وَالرَّجَاءَ، فَجَمِيعُ الْمَقَامَاتِ مُنْدَرِجَةٌ فِيهِ، لَا يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ اسْمَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا بِاسْتِجْمَاعِ الْمَقَامَاتِ لَهُ، وَلِهَذَا كَانَ الْإِيمَانُ نِصْفَيْنِ: نِصْفُ صَبْرٍ، وَنِصْفُ شُكْرٍ، وَالصَّبْرُ دَاخِلٌ فِي الشُّكْرِ، فَرَجَعَ الْإِيمَانُ كُلُّهُ شُكْرًا، وَالشَّاكِرُونَ هُمْ أَقَلُّ الْعِبَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣]".

وقال: وَمِنْ مَنَازِلِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] مَنْزِلَةُ الشُّكْرِ.

وَهِيَ مِنْ أَعْلَى الْمَنَازِلِ. وَهِيَ فَوْقَ مَنْزِلَةِ الرِّضَا وَزِيَادَةٌ. فَالرِّضَا مُنْدَرِجٌ فِي الشُّكْرِ. إِذْ يَسْتَحِيلُ وُجُودُ الشُّكْرِ بِدُونِهِ.

وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ - كَمَا تَقَدَّمَ - وَالْإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفٌ شُكْرٌ. وَنِصْفٌ صَبْرٌ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ. وَنَهَى عَنْ ضِدِّهِ، وَأَثْنَى عَلَى أَهْلِهِ. وَوَصَفَ بِهِ خَوَاصَّ خَلْقِهِ. وَجَعَلَهُ غَايَةَ خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ. وَوَعَدَ أَهْلَهُ بِأَحْسَنِ جَزَائِهِ. وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ. وَحَارِسًا وَحَافِظًا لِنِعْمَتِهِ. وَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَهُ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِآيَاتِهِ. وَاشْتَقَّ لَهُمُ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ. فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الشَّكُورُ وَهُوَ يُوَصِلُ الشَّاكِرَ إِلَى مَشْكُورِهِ بَلْ يُعِيدُ الشَّاكِرَ مَشْكُورًا. وَهُوَ غَايَةُ الرَّبِّ مِنْ عَبْدِهِ. وَأَهْلُهُ هُمُ الْقَلِيلُ مِنْ عِبَادِهِ".

فَشُكْرُ الله على نعمه من صفات المؤمنين الموحدين، والكفر بها من صفات الكفار والمنافقين، كما -تعالى-: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧]، وقال -تعالى-: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

وقوله: «وإذا ابْتُلِيَ صبر».

الابتلاء في اللغة: الاختبار، وهو مصدر «**ابْتَلَى يَبْتَلِي ابْتِلَاءً**».

والبَلَاءُ في اللغة: العَطَاءُ، **ومنه قول زهير**:

رَأَى اللهُ بِالإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمُ ** فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو

وقيل: الاختبار أيضا، **ومنه قول الْجَعْدِيُّ**:

كَفَانِي الْبَلَاءُ وَإِنِّي امْرُؤٌ *** إِذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبِ

فقيل: الابتلاء والبلاء بمعنى واحد، **وقيل**: البلاء أعم، والابتلاء أخص، **وقيل**: غير ذلك.

والأظهر أن البلاء أعم من الابتلاء، بحيث يكون البلاء للمؤمنين والكافرين، أما الابتلاء فخاص بالمؤمنين؛ ولذلك قال -تعالى-: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤].

ثم أكثر ما يكون البلاء عقوبة، كما قال -تعالى-: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

فإذا أُريد به تمحيص المؤمنين واختبارهم جاء مقيدا، كما قال -تعالى-: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩]، وقال -تعالى-: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان:٣٣].

وربما كان البلاء والابتلاء مترادفين، كما قال سليمان عليه -عليه السلام-: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ﴾ [النمل:٤٠]، وحديث " **إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** " أخرجه أحمد بإسناد صحيح.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**» أخرجه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح.

فصفة المؤمن دائما أنه صابر على الابتلاء، شاكر في السراء، كما أخرج مسلم عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».

والمراد من الابتلاء امتحانُ العبد واختباره، أيصبر ويثبت على دينه أم يسخط ويقنط فيسقط في الاختبار، أيرجع إلى الله -جل وعلا- أم يبتعد، أو تُكَفِيرُ سيئاته، ورَفْعُ درجاتِه، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم، والمرء يُبتلى على حسب دينه، كما أخرج أحمد في "المسند" (٣/ص٨٧/ح ١٤٨١) بإسناد حسن عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**». وهذا الحديث يبين أن البلاء والابتلاء قد يترادفان.

وبالبلاء يظهر المؤمن من المنافق؛ كما قال -تعالى-: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ**﴾ [الحج:١١].

والصبر لغة: الحَبْسُ، **قال ابن فارس في** "المقاييس":

"**يُقَالُ**: صَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ، **أَيْ**: حَبَسْتُهَا". وقد نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ «**أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا**» أي: حبسا، أخرجه مسلم، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تعالى-: ﴿**وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ**﴾ [الكهف:٢٨]، أي: واحْبِسْ نَفْسَكَ مَعَهُمْ.

وشرعا: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ. وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى. وَحَبْسُ الْجَوَارِحِ عَنِ التَّشْوِيشِ. قاله ابن القيم في "المدارج".

والصبـر ثلاثة أنواع:

١- صبر على طاعة الله، وهو أعلاها منزلة.

٢- صبر عن معصية الله.

٣- صبر على أقدار الله.

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/١٥١، ١٥٣):

" وَهُوَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ. وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ. فَإِنَّ الْإِيمَانَ نِصْفَانِ: نِصْفُ صَبْرٍ، وَنِصْفُ شُكْرٍ...... وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا جَسَدَ لِمَنْ لَا رَأْسَ لَهُ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: خَيْرُ عَيْشٍ أَدْرَكْنَاهُ بِالصَّبْرِ. وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ ضِيَاءٌ. وَقَالَ: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله» وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

«وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُصْرَعُ فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهَا: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا».

وقوله: «وإذا أذنب استغفر».

أي: وأسأل الله أن يجعلك ممن إذا وقع في الذنب طَلَبَ المغفرةَ من الله جل وعلا.

والاستغفار صفة المؤمنين، كلما أذنب العبد بادر بالاستغفار، كما قال -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥]، والمعصية صفة ملازمة لبني آدم، كما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**» أخرجه أحمد والترمذي بإسناد حسن.

وقد كان النبي ﷺ يستغفر الله في اليوم أكثر من مئة مرة. كما عند مسلم وغيره، وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﷺ، فكيف بنا؟، فالاستغفار فرض واجب يأثم من يتركه، وقد أمر الله به في مواضع كثيرة، من ذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ [هود:٩٠]، وقوله -تعالى-: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمُۢ ﴾ [المزَّمل:٢٠]، وقد أمر به الأنبياءُ قومَهم، كما قال نوح: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴾ [نوح:١٢]، وقال شعيب -عليه السلام- لقومه: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ [هود:٩٠].

وقوله: «فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة».

أي: فإن الشكر على النعماء، والصبر على الابتلاء، والاستغفار عند الوقوع في الذنب عنوان السعادة؛ لأنه ما مِن عَبْدٍ إلا وهو متلبس بهذه الثلاث، إما نعمة فحقها الشكر، وإما ابتلاء فحقه الصبر، وإما ذنب فحقه الاستغفار، فمن أداها كان سعيدا في الدارين، ومن لم يؤدها كان شقيا، فالمؤمن دائما صابر شاكر مستغفر، وغير المؤمن متسخط كافر بنعمة الله لا يستغفر، والحقيقة أنَّ مَنْ تَوَلَّاهُ اللهُ سدده وجعله مباركا، شاكرا على النعماء، صابرا على الابتلاء، مستغفرا دائما.

والعُنْوَانُ: ما جُعل علما ليدل على الشيء، وعُنْوَانٌ فيه ثماني لغات: «**عُنْوَانٌ، وعِنْوَانٌ**، كـ «فُعْوَالٍ وفِعْوَالٍ»، «**وعُنْيَانٌ، وعِنْيَانٌ**»، كـ «فُعْيَالٍ وفِعْيَالٍ»، «**وعِلْوَانٌ، وعُلوانٌ، وعُلْيَانٌ وعِلْيَانٌ**». بإبدال النون لاما.

أما الفعلُ ففيه خمسُ لغات، تقول: «**عَنْوَنْتُ الكتابَ عَنْوَنَةً**»، «**وعَلْوَنْتُهُ عَلْوَنَةً**»، «**وَعَنَّنْتُه**» بنونين، الأولى منهما مشددةٌ، «**تَعْنِينًا**»، «**وَعَنَّيْتُه**» بنون مشددة بعدها ياء «**تَعْنِيَةً**»، والخامسة: «**عَنَوْتُ الكتابَ أَعْنُوهُ عَنْوًا وعُنُوًّا**».

ويُجمع «**عُنوانٌ وعِنوانٌ**» على «**عناوينَ**»، ويُجمع «**عِلوانٌ وعُلوانٌ**» على «**عَلاوين**».

ثم قال:

اِعْلَمْ -أرشدك الله لطاعته- أنَّ الحَنِيفِيَّةَ ملةَ إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسَمَّى صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة، كما قال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة:١٧].

قوله: «اعلم». أي: تَيَقَّنْ، فالعلم في اللغة: مطلق الإدراك[١٨].

والمراد به هنا إدراكٌ **مخصوص مطابق للواقع، أي:** حُكْمُ الذِّهْنِ الْجَازِمُ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ؛ ويُؤْتَى بالعلم عند إرادة شيء مهم؛ وذلك لِجَذْبِ السامع، وتنبيهِهِ أَنَّ مَا يُلْقَى إليه شيءٌ عظيمٌ يَنْبَغِي له أن يَعْتَنِيَ به، وليس شيءٌ أحقَّ أن يُعْتَنَى به كمعرفة التوحيدِ وما يُضادُّهُ من الشرك، **فالمعنى:** كُنْ مُتَيَقِّظًا وَمُتَفَهِّمًا وَمُوقِنًا أن الحَنِيفِيَّةَ ملةَ إبراهيمَ... من ذلك قوله -تعالى-: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩].

---

[١٨] لمزيد بيان عن معنى العلم لغة، والفرق بينه وبين العلم عند المناطقة والأصوليين راجع شرحي على نظم الورقات، والمسمى: " **بالشرح الكبير على نظم الورقات**"، وشرحي على السلم المنورق في علم المنطق، والمسمى: "**المختصر الوجيز في شرح سلم الأخضري**".

وجملة: «**أرشدك الله لطاعته**» معترضة بين الفعل ومُتَعَلِّقِه، وإرشاد اللهِ العبدَ للطاعة هو توفيقه له في طلب الخير، والبعد عن الشر، وفي هذا إشارة منه إلى أن الطاعة هي المقصودة من إرسال اللهِ الرسل، كما قال -سبحانه-: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ** ﴾ [النساء:٦٤].

والطاعة: فعل المأمور، واجتناب المحذور، فإن فعل العبدُ ذلك مخلصا لله جل وعلا، متبعا نبيه ﷺ فهي قُرْبَةٌ، فالقربة إذن أخص من الطاعة، وربما جاء كل منهما بمعنى الآخر.

وقوله : «الحَنِيفِيَّةَ» اسم "أنَّ"، و «**مِلَّةَ**» بدل مطابقة، نبي الله «**إبراهيمَ**» عليه السلام، «**أنْ تعبدَ الله**» أي: عبادةُ اللهِ، فالمصدر المنسبك من أنْ المصدرية والفعلِ المضارِع في محل رفع خبر أنَّ، والجملة كلها من «**أَنَّ واسمِهَا وخبرِهَا**» تُؤَوَّلُ بمصدر سادٍّ مسدَّ مفعولي اعلم، ويجوز في "**ملة**" الرفع على أنها خبر "**أن**"، والمصدر المنسبك من أنْ المصدرية والفعلِ المضارِع في محل رفع خبر مبتدإ محذوف، **أي**: أن الحنيفية ملةُ إبراهيم، وهي عبادة الله.

الحَنِيفِيَّةُ نسبة إلى الحَنِيف، مأخوذ من قول النبي ﷺ: «**أَحَبُّ الْأَدْيَانِ إِلَى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**». أخرجه الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح لغيره، والبخاري تعليقا.

والحنيف في اللغة: المَائِلُ، وأصل الحَنَفِ مَيْلٌ في صدر القَدَم.

وفي الشرع: المقبل على الإسلام الثابتُ عليه المعرض عما سواه، **أي**: أنْ يعبدَ اللهَ وحده مخلصًا له الدين، كما قال -جل وعلا- عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ **إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ**

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل].

وقد قال إبراهيم عن نفسه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

فأمر اللهُ نبيَّه باتباع ملة إبراهيم التي هي الحنيفية؛ إذ قال -سبحانه-: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١]، وقال: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٥].

وقال: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس:١٠٥]، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ [النساء:١٢٥]. فهاتان جملتان خبريتان أريد بهما الإنشاء.

والمِلَّةُ في اللغة: السُّنَّةُ والطَّرِيقَةُ، مأخوذة من "**طَرِيقٌ مَلِيْلٌ**" أي: مسلوك فيه حتَّى صَارَ بينا واضحا، وملة كل قوم دينهم وطريقتهم، ومِلَّةُ إبراهيم هي الحَنِيفَيَّةُ المُسْلِمَةُ، كما قال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. فملة إبراهيم هي الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله وحده،

والبراءة مما يُعبد من دون الله وأهلِه، وتكفير أهلِه ومعاداتهم وبغضهم، كما قال الله -تعالى-: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرُف]. هذه هي ملة إبراهيم، التي كان المشركون من مشركي العرب واليهود والنصارى يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، فكذبهم الله -جل وعلا- بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥].

فإذا عرفت ذلك فاعلم أن الحنيفية هي دين جميع الأنبياء، وفطرة الله التي فطر الناس عليها، كما قال -تعالى-: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وفي الحديث القدسي قال الله -تعالى-: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا .... الحديث**». أخرجه مسلم.

فإن قال قائل: لماذا خص اللهُ إبراهيم بإضافة الملة إليه، وأمر النبي **محمدا** ﷺ باتباع ملة إبراهيم، مع أنها ملة جميع الأنبياء؟

قيل: خُص بها إبراهيم لأن الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ من مشركي العرب واليهود والنصارى كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، فكذبهم الربُّ -جل وعلا- في هذا الادعاء، وبين أن ملة إبراهيم -عليه السلام- هي عبادة الله وحده، والكفر بما يعبد من دون الله، وأن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ولم يك من المشركين، وبين -سبحانه- أنه اصطفاه واتخذه خليلا، وجعله للناس إماما يُقتدى به، ولذلك أمر نبيه ﷺ باتباع ملة إبراهيم، وقد حاج النبي ﷺ المشركين في ملة إبراهيم التي هي ملة الإسلام، وهي الملة التي بُعث بها النبي **محمد** ﷺ، كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في "المسند" بإسناد حسن، وفيه أن النبي ﷺ قال: «**وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»، وقد بين -سبحانه- أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه والنبي **محمد** ﷺ، وليس أهل الشرك من مشركي العرب واليهود والنصارى؛ إذ قال: ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران:٦٨].

وقوله : «أنْ تعبدَ اللهَ وحده».

أصل العبادة في اللغة: الخُضُوعُ والذُّلُّ، والتَّعْبِيدُ هو التَّذْلِيلُ، **يُقال**: طريقٌ مُعَبَّدٌ. **أي**: مُذَلَّلٌ إذا كان مُذَلَّلا بِكَثْـرَةِ الوَطْءِ، **قال طَرَفَةُ في معلقته**:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وأَتْبَعَـتْ *** وظِيفًا وظِيْفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبَّـدِ

أي: فوقَ طريقٍ مُذَلَّلٍ مِنْ كَثْرَةِ السَّيْرِ عليه.

والعبادة في الشرع تُطلق على شيئين:

الأول: الفِعْلُ الذي هو التعبد بمعنى التذللِ لله -جل وعلا- بفعلِ أَوَامِرِهِ واجتنابِ نَوَاهِيهِ مَحَبَّةً وتعظيمًا؛ **كما قال ابنُ القيمِ في** "النونية":

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُـبِّـــهِ *** مَـعْ ذُلِّ عَـابِـدِهِ هُمَـا قُـطْبَـانِ

والثاني: المفعول الذي هو المُتَعَبَّدُ بِهِ.

فهي كمال قال ابن تيمية:

" اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ، وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ.

فَالصَّلَاةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالْحَجُّ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانُ إلَى الْجَارِ، وَالْيَتِيمِ، وَالْمِسْكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءُ، وَالذِّكْرُ، وَالْقِرَاءَةُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ، وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ، وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ، وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ مِنْ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ ".

فالصلاةُ عبادةٌ، وهي المُتَعَبَّدُ به، وإذا صليتَ أنتَ فَفِعْلُكَ -الذي هو التعبدُ- يكون عِبَادَةً.

ومن أنواع العبادة كما قال الشيخ في "الأصول الثلاثة":

" مثلُ الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا، كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.

وقوله : «مخلصا له الدين».

المُخْلِص الذي وحَّد الله -تعالى- توحيدا صافيا من شوائب الشرك والبدعة، بحيث يكون لله وحده ليس لغيره فيه نصيب، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:٢]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:٥]، وقال -تعالى-: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف:٢٩]، وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:١١]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزُّمَر:١٤].

والعمل لا يكون مقبولا عند الله إلا إذا كان خالصا صوابا، فالخالص ما كان لله وحده، والصواب ما كان على السنة، كما قال -تعالى-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال -سبحانه-: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان:٢٢]، وقال -سبحانه-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ [النساء:١٢٥].

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/٩٠):

" فَإِسْلَامُ الْوَجْهِ: إِخْلَاصُ الْقَصْدِ وَالْعَمَلِ لِلَّهِ. وَالْإِحْسَانُ فِيهِ: مُتَابَعَةُ رَسُولِهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**» أَيْ لَا يَبْقَى فِيهِ غِلٌّ، وَلَا يَحْمِلُ الْغِلَّ مَعَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ. بَلْ تَنْفِي عَنْهُ غِلَّهُ. وَتُنَقِّيهِ مِنْهُ. وَتُخْرِجُهُ عَنْهُ. فَإِنَّ الْقَلْبَ يَغِلُّ عَلَى الشِّرْكِ أَعْظَمَ غِلٍّ. وَكَذَلِكَ يَغِلُّ عَلَى الْغِشِّ. وَعَلَى خُرُوجِهِ عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ. فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ تَمْلَؤُهُ غِلًّا وَدَغَلًا. وَدَوَاءُ هَذَا الْغِلِّ، وَاسْتِخْرَاجُ أَخْلَاطِهِ بِتَجْرِيدِ الْإِخْلَاصِ وَالنُّصْحِ، وَمُتَابَعَةِ السُّنَّةِ".

والدِّينُ في اللغة: الطَّاعَةُ والانقياد، **يُقَالُ**: دَانَ بهذا الدينِ إذا طاع وانقاد، وَقَوْمٌ دِينٌ، أَيْ مُطِيعُونَ مُنْقَادُونَ؛ **كما قال الطِّرِمَّاحُ**:

مَلِكٌ تَدِينُ له المُلُوكُ *** ولا يُجَاثِيهِ المُناضِلْ

ومنه قوله -تعالى-: ﴿**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ**﴾ [يوسف:٧٦]، **قيل**: في طاعة الملك.

وربما جاء الدِّينُ بمعنى الحُكْمِ، **قيل في دين الملك**: في حكمه، ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿**مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ**﴾ [الفاتحة:٤]، أي: يَوْمِ الْحُكْمِ، وهذا الحكم يستلزم الْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ، وكونَهم مطيعين منقادين، ومنه قولهم: "**دَانَ المَلِكُ النَّاسَ**" **أَي**: قهرهم وحكمهم فأطاعوه وأذعنوا له، **ويقال**: دِنْتُهُم فدانُوا.

وقوله: وبذلك أمر اللهُ جميعَ الناسِ، وخلقهم لها، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

«**وبذلك**» متعلق بـ "**أَمَرَ**"، أي: وبأن يعبدوا اللهَ وحده مخلصين له الدين «**أَمَرَ اللهُ جميعَ الناسِ**» من الجنِّ والإنسِ؛ لأن لفظ الناس إذا أُطْلِقَ قد يُراد به الجنُّ والإنس، كما قال -تعالى-: ﴿**ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦**﴾ [الناس:٦]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨]، **للناس**: أي للإنس والجن، وقال -تعالى-: ﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال -تعالى-: ﴿**وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا**﴾ [النساء:٧٩]، وأخرج الشيخان عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسعود في قوله -تعالى-: {**إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ**} قَالَ: «**كَانَ نَاسٌ مِنْ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنْ الْجِنِّ فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ**».

وأخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا ...... وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**».

«**وخلقهم**» أي: خلق الجنَّ والإنسَ «**لها**» **أي**: للعبادة، فالضمير في "**لها**" يعود على المصدر المنسبك من أن والفعل المضارع.

«**كما**» الكاف تمثيلية «**قال**» الله «**تَعَالَى**» فعل ماض مبني على الفتح المقدر منع من ظهوره التعذر، والفاعل ضمير مستتر جوازا تقديره "**هو**" يعود على "**الله**" جل وعلا، وجملة "**تعالى**" لا محل لها اعتراضية بين القول ومقوله.

وقوله -تعالى-: «**إلا ليعبدون**» استثناء بعد نفي يفيد الحصر والقصر، **أي**: أن الله -جل وعلا- لم يخلق الجنَّ والإنسَ لشيء من الأشياء إلا لعبادته، فلم يخلقهم

لأجل النبي محمد ﷺ كما يزعم غلاة المتصوفة، ولم يخلقهم لحاجته إليهم تعالى شأنه، ما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، فهو الرزاق ذو القوة المتين، الغني عن العالمين، إليه يحتاج جميع الخلق ولا يحتاج لأحد من خلقه، فلم يخلق خلقَه لحاجته إليهم، وإنما خلقهم لعبادته، لطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، كما قال -سبحانه-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:٥]، ورأس الأوامر الأمر بتوحيد الله، ورأس النواهي النهي عن الإشراك به، فهذه هي الغاية التي لها خلق اللهُ الجنَّ والإنسَ، ولها أرسل جميعَ الرسل، وأنزل الكتب.

وقوله: «فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسَمَّى صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة، كما قال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ **[التوبة:١٧]».**

أي: «**فإذا عرفتَ**» أيها العبد «**أن الله خلقك لعبادته**» لا لشيء آخر «**فاعلم**» فتيقن «**أن العبادة**» التي سبق بيان معناها شرعا «**لا تُسَمَّى عبادةً**» على سبيل الحقيقة، لا من حيث فعل الفاعل، فالعبادة إذن أشمل مطلقا من التوحيد؛ إذ كل موحد عابد لله، وليس كل عابد لله موحدا؛ لأن المشرك قد يعبد اللهَ ويعبد معه غيره كما سيأتي

بيانه، حينئذ ليس كل من عبد اللهَ يكون موحدا، لكن كل موحد عابد لله «**إلا مع التوحيد**»؛ لأن إخلاص الدين لله -جل وعلا- شرط في قبول العبادة، فكما أن الصلاة لا تكون صحيحة إلا بوجود الطهارة، كذلك لا تصح عبادة أحد إلا إذا كان موحدا مخلصا دينه لله وحده، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:٢]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:٥]، وقال: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ [الأعراف:٢٩]، وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:١١].

وهذا المثال من الشيخ إنما جاء به ردا على من يشك في أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، وهذا مسلك من مسالك الجدل معلوم، وهو التدليل بما هو معلوم عند الخصم على ما هو مجهول عنده أو على ما مشكوك فيه لإقامة الحجة عليه، وإزالة الشك عنه، إلا أن حقيقة الأمر أن اشتراط التوحيد في قبول العبادة أقوى من اشتراط الطهارة في صحة الصلاة؛ وذلك من وجوه:

الأول: أن التوحيد شرط في قبول جميع الأعمال، أي: لا تُقبل عبادة البتة إلا بالتوحيد، أما الطهارة فشرط في بعض العبادات.

الثاني: أن التوحيد لا يسع أحدا سمع بدين الإسلام أو تمكن من العلم أنْ لا يأتي به، بخلاف الطهارة، فإنها تسقط ببعض الأعذار.

والتوحيد في اللغة: جَعْلُك الشيءِ وَاحِدًا، مصدر «**وَحَّد يُوَحِّدُ تَوْحِيدًا**».

وشرعا: إفراد الله -جل وعلا- بما يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ والإِلَهِيَّةِ والأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ، ولا يتحقق التوحيد إلا بالنفي والإثبات.

فتوحيد الربوبية: هو توحيد الله بأفعاله «**كالخَلْقِ والرَّزْقِ والإِحْيَاءِ والإِمَاتَةِ والإِجَارَةِ والمُلْكِ والتَّدْبِيرِ**» وغير ذلك من أفراد الربوبية، فهو إفراد الله وحده بالربوية، فتعتقد أنه لا خالقَ إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مميت إلا الله، ولا محي إلا الله، ولا مدبر إلا الله، كما قال -تعالى-: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأعراف:٥٤]. فقدم الخبر في قوله -تعالى-: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} لإفادة الحصر.

وقوله -تعالى-: ﴿**هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**﴾ [فاطر:٣]، وقوله -تعالى-: ﴿**ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ**﴾ [الزُّمَر:٦٢].

وقوله -تعالى-: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ**﴾ [غافر:٦٨]، أي: هو وحده المحي المميت، ووجه كونه حصرا أن كلا من المبتدإ والخبر معرفة.

وقال -سبحانه-: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة:١٨].

وهذا القسم من التوحيد أثبته المشركون في الجملة ولم ينكروه، دليل ذلك قوله -تعالى-: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]، وقوله -تعالى-: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١]، وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف:٩].

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُّمَر:٣٨].

فالمشركون يقرون في الجملة بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحي المميت، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، لكنهم كانوا يشركون في عبادته، فكانوا بذلك كفارا؛ لأنه لا يصح توحيد عبد إلا باجتماعها، على أنه قد وقع الشرك من بعضهم في الربوبية أيضا كما سيأتي بيانه.

وتوحيد الإِلَهِيَّةِ: هو إفراد الله بالعبادة، **أي**: بالعبادةِ مع الحب والتعظيم؛ لأنه ذو الأُلُوهَةِ والعِبَادَةِ.

ويقال له أيضا: توحيد العبادة باعتبار إضافته إلى الإنس والجن والملائكة؛ لأنهم العابدون، وهو المعبود سبحانه، فهو وحده المستحق للعبادة، وجميع ما يدعون من دونه هو الباطل، كما قال -تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

فإفراد الله بالعبادة: أن تكون عبدا لله وحده، تفرده بالتذلل محبة وتعظيما، وتعبده بما شرع، قال -تعالى-: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء:٢٢].

أما حُكْمُ الله فمن حيث إنه فعل لله -جل وعلا- فهو من الربوبية، فهو -سبحانه- الحاكمُ لهذا الكون لا حاكمَ غيرُه، وهو الذي يَشْرَع لعباده -سبحانه- لا شارِعَ غيره، ومن حيث إنه فعل العباد فهو عبادة من توحيد الإلهية؛ لأنه متعلق بأفعالهم، والله -سبحانه- لا يشرك في حكمه أحدا، كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٢١]، وقال -سبحانه-: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]، فقدَّم الجارَّ والمجرور لإفادة الحصر والقصر، **وقال**: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦]. فلا يشرك في حكمه أحدا، سواء كان حكما كونيا أو شرعيا.

فتوحيد الإلهية كفر به أكثر الخلق، وجحدوه، وفيه كانت الخصومة بين الرسل وبين أقوامهم، فمن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهذا التوحيد هو الذي تدل عليه كلمة التوحيد "**لا إله إلا الله**" بدلالة المطابقة.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفرادُ الله -جل وعلا- بأن له أسماءً حُسْنَى وَصِفَاتٍ عُلَى، لا نَرُدُّ شيئا منها، ولا نُحَرِّفُ شيئا منها، ولا نُعَطِّلُ، ولا نُمَثِّلُ، قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه:٨].

وتوحيد الله بأسمائه وصفاته لا يتم إلا بشيئين:

الأول: الإثبات.

أي: أن نثبت لله -سبحانه- ما أثبته لنفسه من أسماء وصفات، وما أثبته له رسوله ﷺ، لا نرد شيئا منها، ولا نحرف شيئا منها عن معناه.

الثاني: أن ننفي المماثلة عنه -سبحانه-.

دليل ذلك قوله -تعالى-: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فأثبت لنفسه -سبحانه- أنه السميع البصير، ونفى -سبحانه- أن يكون سمعُه وبصرُه كسمع المخلوقين وكبصرِهم؛ لأنه سبحانه- ليس كمثله شيء، وكذلك يُقال في جميع الصفات.

فمن أنكر الأسماءَ والصفات، أو أثبت الاسمَ وأنكر الصفةَ، ولم يثبت ما أثبته الله لنفسه فهو مُعَطِّلٌ، أو أثبتها مع تغيير معناها عن المعنى المتبادر من إطلاق اللفظ؛ **كأن يقول**: السمع والبصر ليس معناه أن يسمع الأصوات، ويرى الأشياءَ، إنما السمع والبصر هو العلم بها فهو مُحَرِّفٌ !!، ومرد ذلك إلى التعطيل والإنكار.

ومن أثبتها مع تمثيلها بشيء من مخلوقات -سبحانه- فهو ممثل، ومن أثبتها بغير تمثيل فهو موحد.

وقد اجتمع التوحيد بأقسامه في قوله -تعالى-: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام:١٠٢]، وقوله -سبحانه-: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، وقوله -تعالى-: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، فتُرك المُتَعَلِّقُ لإفادة العموم، **أي**: أحدٌ في ربوبيته، أحدٌ في إلهيته، أحدٌ في أسمائه وصفاته.

فكلمة التوحيد "**لا إله إلا الله**" تدل على معنى: "لا معبودَ حقٌّ إلا الله" بدلالة المطابقة، وتوحيدُ العبادةِ يتضمن توحيدَ الربوبية والأسماءِ والصفات، وتوحيدُ الربوبيةِ والأسماءِ والصفات يستلزم توحيدَ العبادة.

وقوله: «فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ».

أي: فإذا عرفت ما سبق من بيان معنى توحيد العبادة، وأردت أن تعرف ما يضاده من الشرك في العبادة فأقول لك: إذا دخل الشرك في العبادة فسدت.

ولفظ الشركِ في لسان العرب: يدل غالبا على مخالطةٍ بين اثنين، وقد يُراد به التسويةُ، والنَّصِيبُ، **والشَّرِيكُ**: صفةٌ مشبهةٌ من «**شَرِكَ يَشْرَكُ فهو شَرِيكٌ**»، **أي**: فَعِيلٌ بمعنى مفعول، وربما جاء بمعنى فاعل؛ ومُشْرِكٌ اسم فاعل من أَشْرَكَ، **أما الإشراك**: فَفِعْلُ المُشْرِكِ الشِّرْكَ.

والشِّرْكُ: هو اتِّخَاذُ النِّدِّ والشَّرِيكِ مَعَ اللهِ جل وعلا؛ فقد أخرج الشيخان عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «**سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**».

وقال -تعالى-: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠].

وقال -تعالى-: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزُّمَر:٨]، وقال -تعالى-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقال -تعالى-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

واتخاذُ الندِّ والشريك مع الله -جل وعلا- يعني: تَسْوِيَةَ غَيـرِ اللهِ باللهِ فيما هو من خصائص الله؛ **دليل ذلك قولُ المشركين**: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٨].

وينقسم الشرك إلى: «أكبرَ وأصغرَ».

فما كان مخرجا من الملة فهو أكبر، وما لم يكن مخرجا من الملة فهو أصغر.

قال ابنُ تيمية في "مجموع الفتاوى" (٩١/١):

" وَهُوَ نَوْعَانِ: شِرْكٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَشِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ. فَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَهُوَ: أَنْ يَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا؛ **أَيْ**: مِثْلًا فِي عِبَادَتِهِ، أَوْ مَحَبَّتِهِ، أَوْ خَوْفِهِ، أَوْ رَجَائِهِ، أَوْ إنَابَتِهِ، فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ إلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ.

إلى أن قال:

" وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَالشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ؛ فَإِنَّ الرَّبَّ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ الْمُعْطِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ، فَمَنْ شَهِدَ أَنَّ الْمُعْطِيَ أَوْ الْمَانِعَ أَوْ الضَّارَّ أَوْ النَّافِعَ أَوْ الْمُعِزَّ أَوْ الْمُذِلَّ غَيْرُهُ فَقَدْ أَشْرَكَ بِرُبُوبِيَّتِهِ".

وينقسم باعتبار آخر إلى أكبرَ وأصغرَ وخفيٍّ.

فالشرك الأكبر: هو المُخْرِجُ من الملة، وهو الذي يُخلد صاحبه في النار، كشرك الدعاء، وشرك الطاعة، وشرك الخوف، وشرك التوكل، وشرك المحبة، وشرك الرجاء، وغير ذلك من أنواع الشرك.

والشرك الأصغر: كلُّ ما حَكَمَ اللهُ -جل وعلا- عليه بأنه شِرْكٌ ولم يُخْرِجْ صَاحِبَهُ من مِلَّةِ الإسلام، **أو**: هو ما كان وسيلةً للشرك الأكبر، أو ما كان فيه معنى التنديد؛ **كقول**: توكلتُ على الله وعليك، والتوكل لا يكون إلا على الله.

وهو من الكبائر؛ ولذلك قال عبدُ الله بنُ مسعود -رضي الله عنه- فيما أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في "المصنف" (٣/ص٤١٦/ح١٢٤١٤)، والطبرانيُّ في "الكبير" (٨/ص١٠٠/ح٨٨١٠) وغيرُهما بإسنادٍ صحيح على شرطِ الشيخين: «**لأَنْ أَحْلِفَ بِاَللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ وَأَنَا صَادِقٌ**».

ثم كلٌّ من الشركِ الأكبرِ والأصغرِ قد يكون ظاهرا وقد يكون خفيا.

فالظاهرُ من الشركِ الأكبرِ: كعبادة الأصنامِ والأوثانِ والأمواتِ.

والخفيُّ منه: كشرك المنافقين، والرياءِ المُخْرِجِ من الملة.

والظاهر من الشرك الأصغر: كالحلفِ بغيرِ الله، وقول: ما شاء الله وشئت، ولُبْسِ الحَلْقَةِ، وتعليق التمائمِ، وغيرِ ذلك، كاتخاذ الأسباب التي لم يأذن الله بها.

والخفيُّ منه: كيسير الرياء.

وليس هناك تعارضٌ بين القسمتين.

ثم كل من الشرك الأكبر والأصغر يَنْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ كالتوحيد، وهي: «**شركٌ في الربوبية، وشركٌ في الإِلَهِيَّةِ، وشركٌ في الأسماء والصفات**».

فالشرك في الربوبية نوعان: «**تعطيلٌ، وغيرُ تعطيلٍ**».

فشركُ التعطيلِ: هو أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الشرك؛ كشركِ فرعون؛ وشركِ الفلاسفةِ القائلين بِقِدَمِ العالم، وشركِ الجهمية، وأهلِ وَحْدَةِ الوُجُودِ؛ كابن عَرَبِيٍّ، وَابْنِ سَبْعِينَ، وَالتِّلِمْسَانِيِّ، وابنِ الفارضِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ المَلَاحِدَةِ، والدهريين، وَبَعْضِ النصارى، وكشرك الباطنية القائلين بأن أئمتهم وأوليائهم يعلمون ما كان وما يكون.

وغيرُ التعطيل: كشرك مَنْ جَعَلَ مَعَ الله إلهًا آخر ولَمْ يُعطلْ أَسْمَائَهُ وَصِفَاتِهِ ورُبُوبِيَّتَهُ؛ كشرك النصارى الذين جعلوه ثالثَ ثلاثة، وشركِ طَوُائِفَ من اليهود، وشركِ المَجُوسِ القائلين بإسناد حوادثِ الخيرِ إلى النور، وحوادثِ الشرِّ إلى الظلمة، وَشِرْكِ عُبَّادِ الشمسِ، والقمرِ، والكواكب.

قال الشيخ سليمانُ بنُ عبدِ الله:

ويَلتحقُ به من وجهٍ شركُ غلاةِ عُبادِ القبورِ، الذين يزعمون أن أرواحَ الأولياءِ تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويُفَرِّجُونَ الكُرُبَاتِ، وينصرون مَن دعاهم، ويحفظون مَنْ التجأ إليهم، وَلَاذَ بِحِمَاهُمْ، فإنَّ هذه من خصائص الربوبية، كما ذكره بعضهم في هذا النوع.

والشرك في الأسماء والصفات أربعة أنواع:

الأول: تمثيلُ الخالقِ بالمخلوق؛ **كالمُمَثِّلَةِ القائلين**: يَدُ الله كأيدينا، وَسَمْعُهُ كسمعنا، وَبَصَرُهُ كبصرنا.

والثاني: تمثيلُ المَخْلُوقِ بالخالق، ومن هذا النوع شركُ النصارى أيضا؛ لأنهم مَثَّلُوا عيسى بالله جل وعلا.

والثالث: شرك التعطيل؛ كشرك فرعون، والجهمية.

والرابع: اشتقاقُ أَسْمَاءٍ للآلِهَةِ الباطلةِ مِنْ أَسْمَاءِ الإله الحَقِّ؛ كما فعل المشركون؛ إذ سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، والعُزَّى مِنَ العَزِيزِ.

والشرك في توحيد الإِلَهِيَّةِ: صَرْفُ العبادة لغير الله، ويسمى الشركَ في توحيد الإِلَهِيَّةِ **وهو نوعانِ أيضا**:

أحدهما: أن يجعل لله نِدًا يَعْبُدُهُ كما يَعْبُدُ الله، فَيَصْرِفُ لهذا النِّدِّ شيئا من العبادات؛ كالدعاء، أو الشفاعة، أو الرجاء، أو الرهبة، أو الخشية، أو المحبة، أو غيرِ ذلك من العبادات.

والثاني: الشرك الأصغر، كيسيرِ الرياءِ، والتَّصنُّعِ للمخلوق، وعدمِ الإخلاص لله تعالى في العبادة، والْحلفِ بغير الله، إلخ، وقد يصير الشركُ الأصغرُ أكبرَ.

وهذا النوع من الشرك هو المراد من قول الشيخ: "**فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت** ...."؛ فلفظا التوحيد والشرك إذا أُطْلِقَا في الشرع انصرفا غالبا إلى توحيد العبادة، والشرك في العبادة.

واعلم أن أصلَ الشركِ هو الغُلُوُّ في الصالحين، واتخاذُهُمْ شُفَعَاءَ ووسائطَ عند الله، ودليلُهُ ما أخرجه البخاري (ح ٤٥٣٩) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: "صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ"، يريدُ ابنُ عباسٍ آلهةَ قومِ نوح الواردةَ في قولِهِ -تعالى-: ﴿**وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا**﴾ [نوح:٢٣]. قال: "**هي أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ**".

فَمَنْ صَرَفَ شَيْئًا من العبادة لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

فإذا دخل هذا الشرك في العبادة فسدت؛ لأن الشرك محبط للعمل، كما قال -سبحانه-: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾ [التوبة:١٧]».

فبين -سبحانه- أنه حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون وذلك بسبب أنهم أشركوا بالله جل وعلا.

وقال -سبحانه-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزُّمَر:٦٥]، وقال -تعالى-: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال الله -تعالى-: في الحديث القدسي «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رواه مسلم.

فإذا وقع الشركُ في العبادة تضمن الشركَ في الربوبية والأسماء والصفات، وإذا وقع في الأسماء والصفات استلزم الشركَ في العبادة.

وقوله: «كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة».

يعني: أن الشرك إذا دخل في العبادة أفسدها كما أن الحدث يُفسد الطهارة، وذلك لما أخرجه الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ**».

ولما أخرجه مسلم وغيره عن ابنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلَا صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ**».

ثم قال:

فإذا عَرَفْتَ أن الشركَ إذا خَالَطَ العبادةَ أفسدها وأحبط العملَ وصار صاحبُه من الخالدين في النار عرفتَ: أَنَّ أَهَمَّ ما عليك معرفَةُ ذلك، لَعَلَّ الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، " الذي قال الله -تعالى- فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]"، **وذلك بمعرفة أربعِ قواعدَ ذكرها الله -تعالى- في كتابه:**

أي: «**فإذا عرفت**» ما سبق بيانه من «**أن الشرك**» محبط للعمل، ولا ينفع عملٌ صاحبَه إذا كان قد أشرك بالله جل وعلا، بل لا ينفع العملُ صاحبَه «**إذا خَالَطَ**» الشركُ «**العبادةَ**» وتخللها!! فالشرك محبط للعمل ابتداء، ومحبط للعمل إذا خالطه، سواء كان أصغر أو أكبر، فإن كان أكبر فهو محبط للعمل كله، وإن كان أصغر فهو

محبط لنفس العمل، فإذا لم يتب المشرك من شركه ومات عليه كان «**مِنَ الخَالِدِينَ في النار**» نسأل الله النجاة والستر.

فإذا تبين لك ذلك «**عرفتَ**» أيها اللبيب «**أن أَهَمَّ**» وأولى «**ما**» فَرَضَ اللهُ «**عليك معرفةُ ذلك**» التوحيدِ وما يضاده من الشرك، ومعرفةُ أن الشرك محبط للعمل.

يعني: أن معرفة التوحيد، والعملَ به، ومعرفةَ ما يضاده من الشرك، والبعدَ عنه، أولى ما يَعتني به المرءُ، وأولُّ ما يتعلمه، فهو أول فرض على كل عبد.

وذلك أن الله -جل شأنه- ما خلق الخلق هملا ولا سدا، كما قال -سبحانه-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، بل خلقهم لغاية، وهي أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. فتحتم حينئذ أن يكون معرفةُ ما يُتوقف عليه تحقيق هذه الغاية هو أولَّ فرض، كما في حديث معاذ حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وفيه أنه قال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**».

وقوله: «**لَعَلَّ**» للترجي «**الله أن يخلصك**» أي: ينجيك ويسلمك «**من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله**».

ومرد الشَّبْكِ في اللغة إلى التداخل والتخالط، **يُقَالُ**: "شَبَّكَ أَصَابِعَهُ تَشْبِيكًا" أدخل بعضَها في بعض، وَيُقَالُ: "بَيْنَ الْقَوْمِ شُبْكَةُ نَسَبٍ"، أَيْ مُدَاخَلَةٌ ومخالطة. وَمِنْ ذَلِكَ الشَّبَكَةُ، كذا قال الليث، وابن فارس.

وقد أطلق الشيخُ -رفع الله مقامه في أعالي الجنان- لفظَ الشبكةِ على الشركِ من وجهين:

الأول: أن الشرك يخالط العملَ ويدخلُه ويتخلله لدقته وكثرة أنواعه، كما أن الشبكة يدخل أسلاكها في بعض، ويخالط أحدها الآخر.

الثاني: أنَّ الشركَ محيط بصاحبه، كما أن الشبكة تحيط بمن فيها، كما قال -تعالى-: ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ [البقرة:٨١].

أي: من أشرك بالله وأحاطت به خطيئةُ الشركِ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون بسبب شركهم وكفرهم، **قال ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما فيما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما**: "الخطيئة هي الشرك"، فهو الذي يحيط بصاحبه، ولا يدع له مهربا، أما أهل التوحيد فلا تحيط بهم خطيئة.

وقوله: «الذي قال الله -تعالى- فيه: مبينا أنه أعظم ذنب، وأنه لا يغفره لمن مات عليه: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾ [النساء:٤٨]"، فعلى المرء أن يسأل الله النجاة من الشرك، لعل الله أن يخلصه منه فيكون من الموحدين الناجين يوم القيامة «**وذلك**» الخلاص من الشرك «**بمعرفة أربعِ قواعدَ ذكرها الله -تعالى- في كتابه**» أي: في القرءان الكريم.

أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّونَ بأن الله -تعالى- هو الخالقُ المُدَبِّرُ، وأنَّ ذلك لم يُدْخِلْهُمْ في الإسلام، والدليل قوله -تعالى-: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١].

القَاعِدَةُ في اللغة: أَسَاسُ الشيءِ وأَصْلُهُ، وجمعها «**قَوَاعِدُ**»، ومنه قيل لأُسُسِ البيت قواعد، كما في قول- تعالى-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧].

وفي الاصطلاح: قَضِيَّةٌ كُلِيَّـة تَنْطَبِقُ على جزئيات كثيرة.

وقد أراد الشيخ بالقواعد هنا الأسسَ والأصولَ التي يُبنى عليها إسلام العبد ويُميز بهن المسلمَ من المشرك، فمن هذه القواعدِ أربعُ قواعد.

الأولى: «**أن تعلم**» تتقين «**أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ**» ولم يُحَرِّمْ دِمَائَهُمْ ولا أَمْوَالَهُمْ «**مُقِرُّونَ**» مصدقون «**بأن الله -تعالى- هو الخالقُ الرَّازِقُ المُدَبِّـرُ المحي المميت**» **أي**: مصدقون بأفعال الله -جل وعلا- لا ينكرونها.

فالخالق: هو المتصف بصفة الخلق دون من سواه، الخالق لكل شيء، المُوجدُ له بعد أن لم يكن موجودا.

و«**الرزاق**» الذي يعطي جميع مخلوقاته وينفعهم بما يحتاجون إليه.

والرزق على نوعين: «**عام وخاص**».

فالعام: ما يشمل جميع المخلوقات، البر منهم والفاجر.

والخاص: ما يكون للمؤمنين من رزق طيب حلال، ورزق قلوب المؤمنين بما يصلحها من العلم والإيمان، ورزق أبدانهم بما يعينها على الطاعة.

«**والمُدَبِّـرُ**»: الذي يُصَرِّفُ أمرَ هذا الكونِ بحكمته، وينظمُه، ويجري الأمورَ بمشيته لتقع على الوجه المحمود، فلا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل.

«**والمحي**» الذي أحيا جميع المخلوقات، وسيُحييهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم، فيحيي الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها عند البعث، ويحيي القلوب بنور المعرفة، ويحيي الأرض بعد موتها؛ بإنزال الغيث، وإنبات الرزق.

«**والمميت**»، الذي يميت الأحياء.

أدلة ذلك:

قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

أي: قل لهم يا محمد ﷺ: "من الذي يرزقكم من السماء والأرض.... فسيقولون": أي: الكفار بأن الله هو الرازق المالك المحي المميت المدبر فقل لهم: أفلا تتقون اللهَ بإفراده بالعبادة.

وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ..... وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان:٢٥].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزُّخرُف:٩].

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٨٧].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزُّمَر:٣٨].

وقوله -تعالى-: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون].

ومن الأدلة أيضا: الآيات التي وردت في أمر المشركين بتوحيد الله جل وعلا كلها في توحيد الله بالعبادة، وهي تستلزم النهي عن الإشراك به في العبادة، بل ما خلق الله الخلق إلا لعبادته كما سبق بيانه، وهذا أيضا يستلزم الأمر بالعبادة؛ لأنهم مخلوقون لها، من ذلك قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

أي: اعبدوا الله الذي تعتقدون أنتم أنه الخالق لكم، والخالق للذين من قبلكم، ولا تشركوا به شيئا، وأنتم تعلمون أنه هو وحده من جعل لكم الأرض فراشا، والسماء بناء، وأنه الرزاق المدبر، كيف تقرون بأنه الرب الخالق الرازق المدبر ثم تعبدون غيره؟!! ما هذا السفه؟

ولم يقل رسول لقومه: "**يا قوم أقروا بأن الله هو الخالق الرازق المدبر!!**" لأنهم لم يكونوا ينازعون في ذلك، وإنما كان يأمرهم بالعبادة، يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، كما قال -تعالى-: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله -تعالى-: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقوله -تعالى-: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأعراف:٥٩].

وفي حديث معاذ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال النبي له حين بعثه إلى الْيَمَنِ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ**» متفق عليه.

وعند البخاري (ح٦٨٤٢) قال النبي ﷺ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**» فرادف بين لفظتي التوحيد والعبادة؛ لأن الخصومة كانت معهم في توحيد العبادة؛ إذ كانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرزاق المدبر، فلفظا التوحيد والشرك إذا أُطْلِقَا في الشرع انصرفا غالبا إلى توحيد العبادة، والشرك في العبادة. فافهم.

ولذلك كان المشركون يقولون وهم يطوفون بالبيت: «**لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ**» أخرجه مسلم (ح ٢٨٧٢) عن ابن عباس.

فلم يكونوا يعتقدون أن هبل واللات والعزى تملك شيئا، أو أنها ترزقهم وتحيهم وتميتهم، بل ما كانوا يعتقدون أنها المتفردة بالعبادة، وإنما كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

فقوله: «**مقرون**» بمعنى مصدقون، إذ لم ينكروا ذلك، فلم يجعلهم إقرارُهُم بأن الله هو الخالق الرازق المدبر موحدين، **ولا يجوز أن يقال**: كانوا موحدين توحيد الربوبية؛ لأن أنواع التوحيد متلازمة، ولذلك قال -تعالى عنهم-: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف:١٠٦]. **أي**: يؤمنون به ربا خالقا رازقا مدبرا، ويشركون به في العبادة.

قال مجاهد: "إيمانهم: قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا. فهذا إيمان، مع شرك عبادتهم غيره".

وقوله: «وأنَّ ذلك لم يُدْخِلْهُمْ في الإسلام»

يعني: أن إقرارهم بأن الله هو الخالق الرزاق المالك المحي المميت المدبر لم يخرجهم من الكفر إلى الإيمان، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام؛ لأنهم كانوا يُشركون به في العبادة.

وإن كنت في شك فانظر: هل يدخل الرجل في الإسلام إذا كان معتقدا أن الله هو الخالق الرزاق المدبر، أم لا بد من أن يفرده -سبحانه- بالعبادة دون من سواه، **مثلا إن جاءك رجل نصراني يقول**: أنا أعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر، فهل

يكون مسلما؟ قطعا لا يكون مسلما: حتى يشهد أن لا إله إلا الله، **أي**: لا معبود حق إلا الله، وهذا ما جاءت به الرسل أقوامَهم، فتوحيد الربوبية مستقر في فطر الناس لا ينازِع أحد من عقلاء الإنس في إثباته، بل كان إبليس نفسُه مقرًّا بأن الله هو الذي يحي ويميت، ولذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحِجر:٣٨]، لكنه كفر وجحد طاعة الله وأبى أن يسجد لآدم.

فالإيمان بأفعال الله أمر مستقر فى نفوس البشر، لا ينازِع فيه أحد من الناس كافرا كان أو مسلما، إلا شذاذا من بني آدم.

فعُلِمَ مما تقدم أن الإيمان بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لا ينفع إلا إذا أفرد العبدُ ربه بالعبادة، فمجرد الإقرار بالربوبية لا يدخلُ الإسلامَ، فلا بد من الإيمان بأنه لا معبود حق إلا الله.

فمن أقر بالربوبية والأسماء والصفات لم يكن موحدا إلا إذا أفرد الله بالعبادة؛ لأن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، لا يصح التوحيد إلا باجتماعها.

فكلمة التوحيد "**لا إله إلا الله**" تدل على معنى: "لا معبودَ حقٌّ إلا الله" بدلالة المطابقة، وتوحيدُ العبادةِ يتضمن توحيدَ الربوبية والأسماءِ والصفات، وتوحيدُ الربوبيةِ والأسماءِ والصفات يستلزم توحيدَ العبادة.

والشرك إذا وقع في العبادة تضمن الشركَ في الربوبية والأسماء والصفات، وإذا وقع في الأسماء والصفات استلزم الشركَ في العبادة.

وليس معنى أنهم مقرون بأن الله هو الخالق الزراق المدبر أن ذلك حصل منهم في كل مفردات الربوبية، أو أنهم لم يشركوا في الربوبية، بل من المشركين من أشرك بالله في الربوبية، فمنهم من كان يعتقد النفع والضر في معبوداته، ومنهم النصارى الذين جعلوه ثالثَ ثلاثة، وكشركِ طَوُائِفَ من اليهود، وشركِ المَجُوسِ القائلين بإسناد حوادثِ الخيرِ إلى النور، وحوادثِ الشرِّ إلى الظلمة، وَشِرْكِ عُبَّادِ الشمسِ، والقمرِ، والكواكب، وكشرك الفلاسفةِ القائلين بِقِدَمِ العالم، وشركِ الجهمية، وأهلِ وَحْدَةِ الوُجُودِ؛ كابن عَرَبِيٍّ، وَابْنِ سَبْعِينَ، وَالتِّلِمْسَانِيِّ، وابنِ الفارضِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ المَلَاحِدَةِ والدهريين والطبيعين، ويَلتحقُ به من وجهٍ شركُ غلاةِ عُبادِ القبورِ، الذين يزعمون أن أرواحَ الأولياءِ تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويُفَرِّجُونَ الكُرُبَاتِ، وينصرون مَن دعاهم، ويحفظون مَنْ التجأ إليهم، وَلَاذَ بِحِمَاهُمْ، وكقول بعضهم: إن الأقطاب الأربعة يدبرون أمرَ الكونِ مع الله، ويتصرفون فيه، وينفعون ويضرون، وكقول بعضهم: الوَلِـيُّ يمكن أن يخلق، ويقول للشيء كن فيكون.

وهذا مما يبين لك أن معنى "**لا إله إلا الله**" هو "**لا معبود حق إلا الله**"؛ لأنه لو كان معناها "**لا خالق إلا الله**" أو" لا قادر على الاختراع إلا الله" كما يقول المتكلمون لكان مشركو قريش موحدين!! لأنهم يقرون بأن الله هو الخالق الرزاق المدبر، ولذلك

قال لهم النبي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]، إذن أصل الخلاف معهم هي عبادة الله وحده دون من سواه، وهذا ما لم يكن يقر به المشركون، وهذا المعنى مع وضوحه وظهوره على أكمل وجه ضلت فيه فرق وأقوام، فسبحان الله.

فخلاصة القاعدة الأولى: أنَّ مَنْ أقر بربوبية الرب -جل وعلا- وأفعالِه، لم يكن موحدا حتى يفردَه بالعبادة، ويؤمنَ بأن له أسماءً حسنى وصفاتٍ عُلَى، فمن أقرَّ بالربوبية فقط لم يأت بـ "لا إلٰه إلا الله".

أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، فدليل القربة قوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر:٣].

ودليل الشفاعة قوله -تعالى-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مُثْبَتة. فالشفاعة المنفية: ما كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

والشفاعة المُثْبَتَةُ: هي التي تُطْلَبُ من الله، والشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمَشْفُوعُ له مَنْ رَضِيَ اللهُ قولَه وعملَه بعد الإذن؛ كما قال -تعالى-: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥].

هذه القاعدة الثانية جواب سؤال للقاعدة الأولى، **أي إن قلتَ أيا اللبيب**: لماذا أشرك المشركون بالله مع أنهم يقرون بأن الله الخالق الرازق المدبر؟

الإجابة:

لأنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة أو الشفاعة!!

فبعد أن بين لك الشيخ -رحمه الله- الأصلَ الأولَ: "**وهو أن الكفار كانوا مقرين بربوبية الله -جل وعلا- في الجملة**"، **بمعنى**: أنهم لا ينكرون أن الله هو الخالق الرازق المدبر، أراد أن يبين لك بهذه القاعدة أصلا ثانيا يفرق به المسلمُ بين الموحد والمشرك: وهو أنهم لا يقرون بأن الله -جل وعلا- هو المستحق أن يفرد بالعبادة دون من سواه، وأنَّهم لم يكونوا يعبدون تلك المعبودات على وجه الاستقلال، ولا أنها هي التي تستحق العبادة لذاتها، **بل كانوا يقولون**: نعبد هذه المعبودات كي نتقرب بها إلى الله، أو أنها تشفع لنا عند الله، **ولذلك قال**: "**أنهم يقولون**": أي: الكفار" **ما دعوناهم وتوجهنا إليهم**" أي: لتلك المعبودات "**إلا لطلب القربة**" إلى الله، بأن نتخذهم واسطةً بيننا وبين الله "**والشفاعة**" أي: ولكي تشفع لنا عند الله.

فمراد المشركين من طلب القربة من الأنداد علوُّ المنزلة والرفعة عند الله.

ومرادهم من شفاعة الأنداد لهم عند الله العفوُ عما بدر منهم في حق الله جل وعلا!!

والفرق بين القربة والشفاعة: أن القربة أعم مطلقا من الشفاعة؛ إذ كلُّ شفاعةٍ قربةٌ من غير عكس.

والذي حمل المشركين على هذا الشرك هو تقليدُ الآباء والأجداد، كما قال -تعالى-: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [المائدة:١٠٤]. وقال -تعالى-: ﴿ **بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزُّخرُف:٢٢].

وقال -تعالى-: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾**﴾ [الأنبياء].

وقال -تعالى-: ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾**﴾ [الشعراء].

إذن كانوا يتقربون بهذه المعبودات إلى الله كما فعل آباؤهم وأجدادهم، ولم يكونوا يعبدونها لذاتها على وجه الاستقلال، **فدليل القربة قوله -تعالى-**: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ [الزُّمَر:٣].

«**الذين**»: اسم موصول مبني في محل رفع مبتدإ عائد على المشركين، وخبره قول محذوف، وجملة: «**ما نعبدهم .....**» في محل نصب مفعول به مقول القول المقدَّرِ، أي:

يقولون ما نعبدهم. وحذف القول" كثير في لسان العرب، ويؤيده قراءة ابن مسعود: "قالوا ما نعبدهم" بإظهار القول، **أو**: في محل نصب مفعول مطلق، **يقولون قولا** ألا وهو: «**ما نعبدهم...**» والأول أظهر.

فالمعنى:

المشركون الذين "**اتخذوا من دونه**" من دون الله "**أولياء**" يتولونهم بعبادتهم ودعائِهم من دون الله، يقولون معتذرين عن هذا الفعل الشنيع، والذنب القبيح: "**ما نعبدهم**" أي: ما نعبد تلك المعبودات "**إلا ليقربونا إلى الله زلفى**" قُرْبَةً ومَنْـزِلَةً ومكانةً، فترفعُ حوائجَنَا إليه، وتشفعُ لنا عنده. فـ "**زُلْفَى**" مفعولٌ مطلقٌ مؤكِّدٌ من غير جنس المصدر؛ لأنه مرادف له في المعنى، والتوكيد به أبلغ مما لو كان من جنس الفعل؛ لاشتماله على معانٍ متعددة مترادفة، لا كالقربة.

ويجوز أن يكون الموصول في قوله -سبحانه-: «**والذين اتخذوا**» عائدا على ما عُبِدَ من دون الله من الملائكة، والصالحين، وعُزَيْرٍ، واللاتِ، والعُزَّى، ويكون فاعلُ "**اتَّخَذَ**" هو المشركين، ويكون مفعولُ "**اتخذ**" الأول منويا عائدًا على الموصول، والمفعولُ الثاني عائدا على "**أولياءَ**". فيكون التقدير حينئذ: «**والذين اتَّخذهم المشركون أولياءَ**» يقول فيهم المشركون معتذرين عن فعلهم القبيح: «**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**» إلا أن الأول أظهر؛ لأن الأخير يحتاج إلى حذف الضمير العائد على "**الذين**"، ويكون ضمير الفاعل في اتخذوا عائدًا على غير مذكور، وعدم التقدير كما هو مقرر أولى من التقدير.

﴿**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**﴾ بين المشركين بعضهم بعضا ﴿**فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ من طرائقهم فِي عِبَادَةِ معبوداتهم، بأن يدخلهم جميعا جهنم، أو يحكم بينهم وبين

المؤمنين من إنسٍ وجنٍّ ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَمْر دينهم، فَيَدْخُل الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ برحمته وفضله، وَالْكَافِرِينَ النَّارَ بعدله، وهذا الأظهر بدليل قوله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨].

وقوله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ].

ثم بين -سبحانه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يوفق إلى الهداية من هو كاذب في نسبة الشريك والوَلَدِ إليه، والمراد بالكاذب المشركون الذين اتخذوا من دونه أولياء......، ولا يهدي مَنْ هو كَفَّارٌ يَجْحَدُ بآياته وحُجَجِهِ، ويعبد غيرَهُ معه، فهو وحده -سبحانه- يهدي من يشاء ممن يستحق الهداية، ويضل من يشاء ممن يستحق الإضلال، كما قال -تعالى-: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر:٨].

قال ابن جرير (٢١/ص٢٥١):

"والذين اتخذوا من دون الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُم، ويعبدونهم من دون الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زُلْفَى، قربةً ومنزلةً، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا، وهي فيما ذُكر في قراءة أبي: "ما نَعْبُدُكُمْ"، وفي قراءة عبد الله: " (قالوا ما نعبدهم)".

ثم ذكر بإسناده عن مجاهد، أنه قال: "قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزَير".

وعن قتادة: "قالوا: ما نعبد هؤلاء إلا ليقرّبونا، إلا ليشفعُوا لنا عند الله".

وعن السديّ: قال هي منزلة.

وعن ابن زيد: قالوا هم شفعاؤنا عند الله، وهم الذين يقربوننا إلى الله زلفى يوم القيامة للأوثان، والزلفى: القُرَب.

وقال: (**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) يقول تعالى ذكره: إن الله يفصل بين هؤلاء الأحزاب الذين اتخذوا في الدنيا من دون الله أولياء يوم القيامة، فيما هم فيه يختلفون في الدنيا من عبادتهم ما كانوا يعبدون فيها، بأن يصليهم جميعا جهنم، إلا من أخلص الدين لله، فوحده، ولم يشرك به شيئا ..... (**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي**) إلى الحق ودينه الإسلام، والإقرار بوحدانيته، فيوفقه له (**مَنْ هُوَ كَاذِبٌ**) مفتر على الله، يتقول عليه الباطل، ويضيف إليه ما ليس من صفته، ويزعم أن له ولدا افتراءً عليه، (**كَفَّارٌ**) لِنِعَمِهِ، جَحُودٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ.

ثم قال الشيخ:

ودليل الشفاعة قوله -تعالى-: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

الشَّفَاعَةُ لُغَةً [١٩]: انْضِمَامُ الشيءِ إلى الشيءِ ناصرًا له، وسائلًا عنه، وأكثرُ ما يُستعملُ في انضمامِ مَنْ هو أعلى حُرْمَةً وَمَرْتَبَةً إلى مَنْ هُوَ أَدْنَى، **والشَّفْعُ**: الزَّوْجُ، وهو خِلافُ الوَتْرِ. **والشفاعة**: مصدر «**شَفَعَ يَشْفَعُ شَفْعًا وَشَفَاعَةً**»، **وقيل**: اسم مصدر".

والشافع والشفيع: هو الطالب لغيره، والمعينُ غَيْـرَهُ، وجمعه «**شُفَعَاءَ**» مثل «**كريمٍ**» و «**كُرَمَاءَ**».

قال الطِّرِمَّاحُ:

ويُحْدِثُ قَلْبي كُلَّ يَوْمٍ شَفَاعَةً ** لَهُنَّ، ومَا لي عِنْدَهُنَّ شَفِيعُ

ومرد الشِّينِ وَالْفَاءِ وَالْعَيْنِ كما قال ابن فارس في "المقاييس": إلى "مُقَارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ. مِنْ ذَلِكَ الشَّفْعُ خِلَافُ الْوَتْرِ. تَقُولُ: كَانَ فَرْدًا فَشَفَعْتُهُ".

---

[١٩]- العين (١/٢٦٠)، مقاييس اللغة (٣/٢٠١)، مفردات الراغب (ص٢٩٠)، القاموس المحيط (ص٩٤٨)، لسان العرب (٤/٢٢٨٩)، تاج العروس (٢١/٢٤٩).

والشَّفَاعَةُ نَوْعَانِ: «**شَرْعِيَّةٌ، وَشِرْكِيَّةٌ**» **أو كما قال الشيخ**: «**منفية ومثبتة**»، **فالمنفية**: شركية، **والمثبتة**: شرعية.

فالشفاعة المنفية كما قال الشيخ: ما كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله -تعالى-: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [البقرة:٢٥٤].

فقوله: «**ما كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله**»، كمغفرة الذنب، وقضاء الحوائج، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، فطلب الشفاعة من الله توحيد، وطلبها من غيره، كطلبها من الأموات شرك أكبر، أما طلب شيء من إنسان حي حاضر قادر في الدنيا أو في عرصات يوم القيامة فجائز.

فالأول: كما لو قلت لغيرك ممن هو حاضر قادر: اسقني ماءً، **والثاني**: كما في حديث الشفاعة العظمى، وسوف يأتي بيانه.

والشفاعة المُثْبَتَةُ: هي التي تُطْلَبُ من الله، والشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمَشْفُوعُ له مَنْ رَضِيَ اللهُ قولَه وعملَه بعد الإذن؛ كما قال -تعالى-: ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالشفاعة الشرعية:

أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ رَضِيَ عَنْهُ بالتَّوَسُّطِ لِآخَرَ مَرْضِيٍّ عَنْهُ أيضا لِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ، أَوْ لِدَفْعِ مَضَــرَّةٍ.

وللشفاعة الشرعية شرطان مجملان، وثلاثة شروط مفصلة:

أما الإجماليان فهما: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وأما المفصلة:

فالأول منها: إِذْنُ اللهِ في الشفاعة، سوء أَذِنَ هو -سبحانه-، أو طُلبتِ الشفاعةُ منه، **كأن تقول**: اللَّهُمَّ شَفِّعْ فيَّ نبيَّكَ ﷺ، إذن لا بد من إِذْنِ الله جل وعلا في الشفاعة، كما قال -تعالى-: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ البقرة:٢٥٥]. **أي**: من هذا الذي يشفع عنده إلا بإذن منه سبحانه؟ لا أحد.

فَـ"**مَنْ**": اسم استفهام إنكاريٍّ مبني في محل رفع مبتدإ، يُراد منه نفي الشفاعة إلا بإذن الله جل وعلا، ودليل ذلك دخول «**إلا**» في قولِهِ «**إِلَّا بإذنه**».

و"**ذا**" اسم إشارةٍ في محل رفع خبر.

و"**الذي**" اسم موصول في محل رفع نعت لاسم الإشارة، أو بدل منه.

عنده: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الذي.

ويجوز أن يكون "**مَنْذَا**" مركبا في محل رفع مبتدإ؛ كـ "**ماذا**"، خبره الموصول. والأول أحسن.

و"**إلا**" استثناءٌ مفرَّغ. "**بإذنه**" الباءُ للمصاحبةِ.

فالمعنى:

لا يشفع أحدٌ عند الله مطلقا، سواء كان ملكا، أو نبيا، أو صالحا، إلا بإذن منه سبحانه، وكان هذا ردًّا على المشركين، حيث زعموا: أن معبوداتِهم من الأصنام وغيرِها تشفع لهم عند الله، فبين -سبحانه- أنه لا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه سبحانه.

والثاني: رِضَى اللهِ عن الشافع، ودليل الرضى عن الشافع قوله -تعالى-: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ**﴾ [النجم:٢٦]، وقال -تعالى-: ﴿**يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا**﴾ [طه:١٠٩].

وهذا يعني أن الشافع مُكْرَمٌ من الله بشفاعته في غيره، فليس هو شريكًا مع الله كما يعتقد المشركون، بل إن الله -جل وعلا- رضي عنه، وأذن له، وتفضل عليه وأكرمه بأن يشفع لغيره، فيُظْهِرُ حينئذ -سبحانه- فضلَه على المشفوع له، ويثيبُه على شفاعته، كما عند البخاري (ح ١٣٤٢) من حديث أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا**» وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ».

الثالث: رِضَى اللهِ عن المُشْفُوعِ له؛ كما قال تعالى-: ﴿**وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٨]. أما الكافرون فلم يرض الله عنهم، لذا لا تنفعهم حينئذ شفاعة أحد، كما قال -سبحانه-: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ**﴾ [المدَّثر:٤٨]. بل لا يجدون مَنْ يشفع لهم يومئذ، حتى إنهم ليقولون: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ**﴾ [الشعراء:١٠٠]. وقال -تعالى-: ﴿ **وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ** ﴾ [الروم:١٣]، فبين -سبحانه- أن هذه الآلهة لا تشفع لهم البتة. أما أبو طالب عم النبي ﷺ فتخفيف العذاب عنه خاص به كما سيأتي.

ولم يذكر الشيخ المصنف شرطَ الإذن عن الشافع والمشفوع؛ لأن رضاه -سبحانه- عن المشفوعِ له يتضمن الإذنَ للشافع.

والشفاعة من حيث الغرض نوعان:

الأول: أن تكون في طَلَبِ منفعةٍ؛ كشفاعتِهِ ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها؛ كما أخرج مسلم (ح٥٠٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا**».

وأخرج مسلم (ح٥٠٧) عن أنس أيضا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**آتِى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ**».

والثاني: أن تكون الشفاعة في دفع مضرة، كإخراج عُصَاةِ الموحدين من النار؛ كما في حديث الرؤيا الطويل، وفيه: «**فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ**». متفق عليه.

وللبخاري عن أبي هريرة: «**حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ**».

وأخرج الترمذي (ح ٢٨٠٤) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيَخْرُجَنَّ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِى مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَتِي يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيُّونَ**» بالرفع على الحكاية.

وهذه الشفاعةُ يُنكرها المعتزلةُ والخوارجُ؛ لأنهم يعتقدون أَنَّ مَنْ دَخَلَ النارَ مِنْ عُصَاةِ المُوَحِّدِينَ لا يخرجُ منها، فَكَذَّبُوا وَحَرَّفُوا النصوصَ المُحْكَمَاتِ.

أما شفاعة مخلوق لمخلوق في أمر من أمور الدنيا فمردها إلى الأحكام الخمسة.

والشفاعة الشرعية تنقسم إلى قسمين: «**عَامَّةٍ، وَخَاصَّةٍ**».

فالعامة تشمل الأنبياءَ والملائكةَ والصالحين، كَشَفَاعَتِهِم في عصاة الموحدين أن يخرجوا من النار، والخاصةُ إنما هي للرسول ﷺ، **وهي نوعان**:

الأول: الشفاعة العظمى في أهل الموقف أن يُقْضَى بينهم؛ كما في حديث الشفاعة المتفقِ عليه، وفيه: «أَنَّ أهلَ المُوْقِفِ يأتون آدَمَ فيذكر خَطِيئَتَهُ، ثم نُوحًا فيذكرُ خَطِيئَتَهُ، ثم إِبْرَاهِيمَ فيَذْكُرُ لَهُمْ خَطَايَاهُ الَّتِي أَصَابَهَا، ثم موسى فيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، ثم عيسى فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فيقول النبي ﷺ: «**فَيَأْتُونِ فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي ثُمَّ يُقَالُ لِي ارْفَعْ مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ... الحديث**».

ومنها شفاعتُهُ ﷺ في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

الثاني: شفاعةٌ أخصُّ من السابقة، وهي شفاعتُهُ ﷺ لِعَمِّهِ أبي طالبٍ أن يُخَفَّفَ عنه العذاب؛ فقد أخرج الشيخان عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ قَالَ: «**نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**».

والشفاعة الشركية:

هي أن يختل شرطٌ من شروطِ الشفاعةِ الشرعية، وهي ما يعتقده المشركون في آلهتهم، من أنها تُقَرِّبُ إلى الله، وأنها تشفعُ لهم عنده، وقد كذبهم اللهُ -سبحانه- وَحَكَمَ عليهم بأنهم مشركون؛ **قال الله -تعالى-:** ﴿**وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ**﴾ [يونس:١٨].

فإن قال قائل: لماذا الشفاعة غير الشرعية شركٌ أكبر؟

قلت: لأن الشفاعة طلبٌ، سواء كان الطلب لتحصيل منفعة، أو لدفع مضرة، والطلب عبادةٌ؛ لأنه دعاءٌ. فمن طلبها من غير الله فقد اتخذ هذا الشفيعَ شريكا مع الله.

قال ابن تيمية في " الصَّفَدِيَّة " (٢/٢٩١):

"وذلك أنه من يشفع عنده بغير إذنه كان الشافع شريكا له، ولهذا سُمِّيَ الشفيعُ شفيعا لأنه يشفع للطالب؛ كما قال تعالى: {**مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا**} (سورة النساء ٨٥) فكل من أعان غيرَهُ على أمر فهو شافعٌ له، والشافع عند غيره تُؤَثِّرُ فيه حركةٌ تغيرُ اختيارَهُ، ويكون شريكا له في المطلوب، والله مُنَـزَّهٌ عن ذلك كُلِّهِ".

وقال ابن القيم في "**إغاثة اللهفان**" (١/٢٢٠):

في "قوله -تعالى-: {**مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**} [يونس: ٣]، وقوله -تعالى-: وقال: {**مَنْ ذَا الّذِى يَشْفَعَ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِه**} [البقرة: ٢٥٥] فالشفاعة بإذنه ليست شفاعةَ مَنْ دُونَهُ، ولا الشافعُ شفيعَ مَنْ دُونَهُ، بل شَفِيعٌ بِإِذْنِهِ.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور.

فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعةُ الشريك، فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعةُ العبدِ المأمور الذي لا يَشْفَعُ ولا يتقدمُ بين يدي مَالِكِهِ حتى يأذنَ له. ويقول: اشفع في فلان. ولهذا كان أسعدَ الناس بشفاعةِ سيدِ الشفعاء يومَ القيامة أهلُ التوحيد، الذين جردوا التوحيدَ وَخَلَّصُوهُ مِنْ تَعَلُّقَاتِ الشرك وشَوَائِبِهِ، وهم الذين ارتضى اللهُ سبحانه.

قال تعالى: {**وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لَمِنِ ارْتَضَى**} [الأنبياء: ٢٨]، وقال: {**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَرَضِى لَهُ قَوْلا**} [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعةٌ تنفعُ إلا بعد رِضَاءِ قولِ المشفوع له، وإِذْنِهِ للشافع فيه، فأما المشركُ فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قولَهُ، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه عَلَّقَهَا بأمرين: رِضَاهُ عن المشفوع له، وإذنِهِ للشافع ورضاه عنه، فما لم يوجد مجموعُ الأمرين لم توجدِ الشفاعة".

فَمَنْ أرادَ الشفاعةَ فَلْيَطْلُبْهَا من الله -جل وعلا- بتحقيق التوحيد، لا باتخاذ الوسائط؛ فقد أخرج البخاري في "صحيحه" (ح٩٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ **«أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أو مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ»**.

فمن اعتقد أنه لا يُتوصل إلى الله إلا بدعاء تلك الوسائط، سواء أكانت مَلَكًا، أم نبيا، أم وليا، أم غيرَ ذلك؛ كأن يعتقدَ أنهم أقربُ إلى الله منه، وليس هو بأهلٍ لأن يُبَاشِرَ عِبَادَةَ اللهِ، أو أنهم يرفعون شكواه إلى الله؛ كما يَرْفَعُ الوُزَرَاءُ شَكْوَى الناسِ إلى المُلوك، أو أنهم يشفعون له عند الله إذا طلب ذلك منهم، أو يتوكل عليهم، أو يسألَهُمْ جلبَ المنافع ودفعَ المضار؛ **كأن يقول**: يا بدوي اشفع لي عند الله، **أو**: يا رسول الله قَرِّبْنِي إلى الله، **أو**: اذكرني عند ربك بخير، **أو**: كن سببا في شفائي، ... إلخ فقد أشرك بالله جل وعلا، وشبه الخالقَ بملوك الدنيا، وقاسه بهم؛ إذ أن ملوك الدنيا لا يُوصل إليهم إلا بشفعاءَ، ووزراء، يرفعون إليهم حوائجَ الرعايا، وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ لأن الله -جل وعلا- منزه عن ذلك كله، وهو -سبحانه- لا يحتاج لوسيط؛ لأنه يسمع عباده، ويعلم أحوالَهم، وحوائجَهُم، قريبٌ منهم، وهو -سبحانه- لم يأذن لهؤلاء بالشفاعة، **قال الله -تعالى-**: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

فبين اللهُ -سبحانه- بطلانَ قولِهِمْ وأنهم مشركون عابدون لتلك الوسائط؛ **إذ قال:** ﴿**قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [يونس:١٨].

وقال -تعالى-: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ فَقَصرَ المشركون فعلَهم على مجرد التقرب إلى الله بهذه الوسائط، لِظَنِّهم أَنَّ عِبَادَةَ تلك الوسائطِ من الْأَصْنَامِ والصالحين والملائكة تقربهم إلى الله، وتشفعُ لهم عِنْدَه، وهو ما يقولُهُ مشركو زمانِنَا من عُبَّادِ القبور، فَبَيَّنَ اللهُ أنهم كفارٌ كاذبون في دعواهم؛ إذ قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ [الزُّمَر:٣]. فكيف بمن يتخذ الطواغيتَ وسائط؟

فالواجب على العبد أن يدعو اللهَ بلا واسطة، فإن الله سميعٌ قريبٌ؛ قال الله -سبحانه-: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال -سبحانه-: ﴿**فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾ [هود:٦١]، وقال: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقال -سبحانه-: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر:٦٠].

أما هذه الوسائطُ التي يعبدها هؤلاء المشركون فلا تنفعُهُم ولا تضرهم؛ لِقَوْلِهِ تعالى-: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ**﴾ [يونس:١٨].

وقولِهِ -سبحانه-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ:٤٠].

وقولِهِ-سبحانه-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ [الفرقان:٥٥].

وقولِهِ-سبحانه-: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦].

وقولِهِ -سبحانه-: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

وقولِهِ-سبحانه-: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد:١٦].

ولا تَمْلِكُ هذه الوسائطُ لهم شيئا؛ قال الله -سبحانه-: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

بل لا يسمعون مَنْ دَعَاهُمْ؛ قال الله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف].

وربما كانتِ الواسطةُ بِدْعِيَّةً غيرَ مكفرةٍ؛ كالتوسل بجاه الأنبياء والصالحين، أو أن يعتقدَ أن الصلاةَ بجوار فلانٍ الصالحِ سببٌ في قبولِ صلاتِهِ دون أَنْ يَدْعُوَهُ، فهذا وشِبْهُهُ وسيلةٌ إلى الشرك الأكبر.

وأما الوَاسِطَةُ الشرعية فهم رسلُ اللّهِ وأنبياؤهُ وملائكتُهُ، ومعنى كونهم واسطةً بين الله وبين خلقه أنه لا يُعْرَفُ دينُ اللهِ إلا برُسُلِهِ، فهذه واسطة مجمع عليها، لا يُنكرها إلا كافرٌ زنديق.

قال ابن تيمية في "الواسطة بين الحق والخلق" (ص٧، ٨):

"قال تعالى- ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾، وقال -تعالى-: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾. ومِثْلُ هذا في القرءان كثير، وهذا ما أجمع عليه جميعُ أهلِ المِلَلِ من المسلمين واليهودِ والنصارى، فإنهم يُثْبِتُونَ الوسائطَ بين الله وبين عباده، وهم الرسل الذين بَلَّغُوا عن الله أَمْرَهُ وَخَبَرَهُ، قال -تعالى-: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾. ومَنْ أنكر هذه الوسائطَ فهو كافر بإجماع أهل المِلَلِ".

إلى أَنْ قال:

"فهذه الوسائطُ تُطَاعُ وتُتَّبَعُ ويُقْتَدَى بها؛ كما قال -تعالى-: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾، وقال -تعالى-: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾".

وقال القرطبي في تفسير (سورة الكهف: الآيات ٧٩ الى ٨٢):

"وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَقَدْ حَصَلَ الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ، وَالْيَقِينُ الضَّرُورِيُّ وَاجْتِمَاعُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى أَنْ لَا طَرِيقَ لِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ -تَعَالَى- الَّتِي هِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، ولا يُعْرَفُ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ".

فعلم مما سبق أنَّ أصل الشرك، وسببَ وجودِهِ شيئان:

الأول: الغُلُوُّ في الصالحين.

الثاني: اتخاذُهُمْ شُفَعَاءَ ووسائطَ عند الله، ويبين لك ذلك أكثر ما أخرجه البخاري (ح ٤٥٣٩) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: "صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ"، يريدُ ابنُ عباسٍ آلهةَ قومِ نوح الواردةَ في قولِهِ -تعالى-: ﴿**وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ [نوح:٢٣].

قال: "**هي أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ**".

أقسام الناس في الشفاعة

انقسم الناس في الشفاعة إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: من أنكرها مطلقا، وهم بعض المتكلمين، ومنهم من أنكر شفاعة النبيين في عصاة الموحدين، وهم الخوارج والمعتزلة، وذلك لمذهبهم الفاسد في الوعيد.

القسم الثاني: من أثبتها مطلقا وغالى في إثباتها، وهم المشركون قديما وحديثا، كالنصارى، والروافض، وعباد القبور، وغيرهم، وهؤلاء جميعا يعتقدون تصرفَ المستشفع به مطلقا، ويطلبون منه الشفاعة.

القسم الثالث: أهل السنة والجماعة، وهم الذين هداهم الله فجعلهم وسطا على النحو السابق ذكره.

خلاصة القاعدة الثانية:

١- أن المشركين لم يكونوا يعبدون تلك المعبودات على وجه الاستقلال، ولا أنها هي التي تستحق العبادة لذاتها، **بل كانوا يقولون**: نعبد هذه المعبودات كي نتقرب بها إلى اللّٰه، أو أنها تشفع لنا عند اللّٰه.

أما طلبهم القربة من الآلهة فبين اللّٰهُ -سبحانه- بطلانَه من وجهين:

الأول: أن تقربهم إلى الله بهذه الآلة باطل، وأن آلهتهم لا تقربهم إلى الله بل تبعدهم عنه؛ لأنه لا واسطة بين الله وبين خلقه.

الثاني: أنهم كاذبون في دعواهم نسبةَ الولي الناصرِ والمعينِ لله، وبين -سبحانه- أنه لا وليَّ له، ولا معينَ له، ولا ناصرَ له.

وهذه الشبهة بعينها هي شبهة مشركي زماننا من عباد الأوثان والموتى.

وأما طلبهم الشفاعة من آلهتهم فبين الله -سبحانه- بطلانَه من ثلاثة أوجه:

الأول: أن هذه الآلهة لا تشفع لهم البتة؛ لأنهم لا يملكون الشفاعة، وأن الشفاعة لله وحده سبحانه.

الثاني: أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه سبحانه.

الثالث: أن المشركين لا تنفعهم شفاعة أحد البتة.

٢- أن الشفاعة على نوعين: «**مثبتة، ومنفية**».

فالشفاعة المنفية: ما كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والشفاعة المُثْبَتَةُ: هي التي تُطْلَبُ من الله، والشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمَشْفُوعُ له مَنْ رَضِيَ اللهُ قولَه وعملَه بعد الإذن.

ثم كل من الشفاعة المثبتة والمنفية تارة تكون مثبتةً للشافع والمشفوع له بعد إذن الله ورضاه، وتارة تكون منفيةً عن الشافع والمشفوع له.

فتصير أنواع الشفاعة أربعة:

- شفاعة منفية عن الشافع، كنفي أن آلهة المشركين تشفع للمشركين.
- شفاعة منفية عن المشفوع له، كنفي الشفاعة عن الكافرين.
- شفاعة مثبتة للشافع بعد أذن الله ورضاه، كشفاعة النبي ﷺ.
- شفاعة مثبتة للمشفوع له، كشفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته.